

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

مجموعات قصصية

فارس هوازن

Hawazen's Knight

عبد الرحمن

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا











روايات نجيب الكيلانى

فارس هوازن

وقصص أخرى

د. نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٩١٣٦

الترقيم الدولي:

978-977-255-360-0



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

فارس هوازن

شباب ومال وسلطان عريض، وشجاعة مفرطة، ذلك هو مالك بن عوف زعيم قبائل «هوازن» لم يكن قد تخطى الثلاثين من عمره، لكنه كان حاسم الرأى، قاطع الكلمة لا يطيق الجدل، ويكره أن يعارضه أحد، لا يأتى عملاً من الأعمال إلا ويتجلى فيه حماسه وإخلاصه.. حتى ولو كان يمضى فى طريق الخطأ، لا تراوده الشكوك فى رأى ارتآه... ويكره أن يطيل التفكير فى شىء مهما كان خطره.

لكن الأمر هذه المرة جد مختلف.. لقد انتصر محمد، وفتحت له «مكة» أبوابها.. أصبحت كلمة المسلمين هى العليا، وليس أمام «مالك بن عوف النصرى» سوى أن يدين بالطاعة لمحمد رسول الله، أو يحشد هوازن لضرب المسلمين والاحتفاظ بسلطانه وكبريائه.. لابد أن يختار مالك أى السبيلين.

ولم يستطع أن يخفى ما انتابه من قلق وتوتر، على الرغم من أنه

كان يحاول أن يضحك ويسخر ويثرثر، لكن محاولته كانت تدعو إلى الرثاء فقد أبانت عن همومه واضطرابه . .

قالت زوجه وهى تراه يزرع المكان جيئة وذهابًا:

- «فيم تفكر؟».

- «الحرب . . ولا شىء غير الحرب يا امرأة . . .».

- «أتعتقد أن من اليسير هزيمة محمد؟؟».

- ولم لا .

- «قريش سلمت له . .».

قهقه ساخرًا:

- «ومَنْ قريش؟؟».

كان واضحًا أنه يغالط نفسه، وهى تعرف زوجها، إن داء الغرور يتحكم فيه، ذلك الداء يجد فى قلب مالك مرتعًا خصبًا، أليس شابًا قويًا وفارسًا شجاعًا، وسيدًا مطاعًا؟؟

وكانت زوجه قد علمت أن شيخ هوازن الطاعن فى السن «دريد ابن الصمة»، المعروف بحكمته وسداد رأيه، وماضيه الحافل بالأمجاد كانت تعلم أن «دريدًا» هذا لا يميل إلى الحرب، ومن ثم قالت بصوت خافت:

- «وما رأى دريد بن الصمة؟؟» .

وعلى الرغم من خفوت صوتها، وتأدبها فى الحديث، فقد اشتعل مالك ثورة، واحتقن وجهه بالغضب، وهتف:

- «لا تذكرى اسمه . . لقد انتهت أيامه . . وأيام أمثاله . . » .

وساد السكون برهة، ثم مضى فى حديثه:

- لقد أصبح هرمًا . . كلما تقدم به العمر تضاءلت شجاعته، وتحولت أفكاره إلى آراء تشبه آراء الصبية . . دريد بن الصمة عجينة رخوة من التردد والخوف والجمود.

ودق الأرض بقدمه فى قوة، وهتف:

- لن يستقيم أمر قومنا إلا إذا تولى أمره رجل قوى ثابت الرأى والجنان . . هذا هو الطريق كى نتسنم مراتب المجد.

قالت زوجه مطأطئة رأسها:

- «لكنك لا تنكر خبرته الطويلة وإخلاصه المعروف، وسداد رأيه» .

جذبها من كمها فى تحدٍّ، وقال:

- «لكل دولة رجال . . » .

- «إنك تظلم الرجل» .

عاد يقهقه.

- «وكلما نظرت إلى وجهه المغضن وشعره الأشيب، وعينيه الكابيتين تذكرت الموت.. والقبر.. والهياكل المبعثرة فوق الرمال..».

قالت فى استسلام: «الأمر لك».

رماها بنظرة حاقدة، وقال بعينين محمرتين:

«إننى أكره الخوف.. أكره التردد.. إننى أكرهك أنت الأخرى..».

شحب وجهها، وتندت عيناها بالدموع، وقالت فى أسى:

«أعرف ذلك.. لكن ألم تفكر فى سبب يدفعك إلى إشعال الحرب؟؟».

قال:

- «لا أريد أن أدين بالفضل لأحد إلا لسيفى..».

- «وماذا؟؟».

- «ولأنى أرفض أن أتلقى هداية من أحد.. ليس هناك إله إلا الذى أختاره لنفسى..».

- «معنى ذلك أن تبقى دائمًا فوق الآلهة؟؟».

قال دون اكتراث :

- «أجل . . » .

وأخذ يجفف عرقه ، وهو يستطرد :

- «لن يدخل هوازن دين جديد . . ولا نبى . . ستبقى هوازن هوازن . . شامخة قوية تحوطها السيوف ، وتحميها الأذرع القوية . . ولن تستطيع ملائكة محمد أن يدخلوها» .

وخطا نحوها خطوات قليلة ، ثم رفع ذقنها ، ونظر إليها باستغراب قائلاً :

- «وما دخل النساء فى أمر كهذا؟» .

- «لأنى أريدك أن تبقى . . » .

- «هذا شأنى . . » .

- «إنك لنا . . ولهوازن» .

- «كل شىء لى . . هوازن بمالها ورجالها وأنعامها . . وأنا سيدها» .

جمعت أمرها ، وقالت فى شجاعة :

«أنت بدون هوازن لا شىء . . » .

قال دهشًا :

- «كيف؟؟».

- «إن سيفًا واحدًا لا يستطيع أن يخضع الرقاب، وهوازن برغم كل شيء تحبك.. هذا الحب هو سر سلطانك ووجودك..».

- «تضحكني حكمتك.. إنها تذكرني بهذيان «دريد بن الصمة».. ومع ذلك فإنني سعيد بذلك الحب.. وهو دليل أكيد على أنني قادر أن أشق طريقي إلى النصر والمجد..».

- «ألا تفكر في مصير من يحبونك؟؟».

هدر في صبر نافذ:

- «قلت لك النصر.. والمجد.. أي شيء أعظم من ذلك؟؟».

وانهمرت دموعها بغزارة، ثم ألقت بنفسها على صدره، متشبثة بثيابه، وكانت تقول:

- «قلت منذ قليل إنك تكرهني.. ومع ذلك فأنا أحبك.. وأتفاني في خدمتك وإسعادك.. ليتك أرقت دمي قبل أن تتفوه بهذه الكلمات.. الموت أهون منها..».

انتعش قلبه، وترنحت أعطافه بشعور مبهج، ورفع رأسه في تعالٍ وغرور، وقال:

- «كثيرات أولئك اللاتي يلثمن التراب الذي أمشي عليه، ويحلمن بنظرة ود وحنان.. كلهن تعرفن من هو مالك بن

عوف . . إلا أنت، دائمًا تصرين على مجادلتى . . بل والاعتراض على تصرفاتى . . ».

قالت محزونة :

- «أتعتبر كل من بادلك الرأى عدوًا يستحق الكره . . ؟».

- «بكل تأكيد . . ».

- «هذا مقياس خاطئ أيها الحبيب . . إننى لا أفكر إلا فى سلامتك، الذين يخدعونكم هم العدو . . الذين يهتفون باسمك أغلبهم منافقون . . إنهم يحسدونك ويحقدون عليك، ويتعشقون اليوم الذى يرونك فيه قد تعريت من كل سلطة ومجد وحب . . صدقنى . . ».

دفعها فى ازدراء، ومضى خارجًا . .

حينما غادر المكان لقيه أحد عبيده قادمًا على جواد، وما إن ترجل حتى هتف به «مالك» قائلاً :

- «كيف وجدتها؟؟».

قال العبد منكس الرأس :

- «إنها تعتذر عن لقاء مولاى الليلة».

استشاط مالك غضبًا، وصاح فى وجه العبد :

- «اغرب عن وجهى».

كان قلبه يخفق فى عنف، أليس غريبًا أن تتأبى عليه امرأة؟؟ وأية امرأة؟؟ تلك الأرملة الغريبة الشأن «عاتكة بنة مويهب».. مات أبوها وإخوتها فى غارات للثأر، ومات زوجها دون أن تنجب بالطريقة نفسها، ولم يبقَ سوى أمها العجوز، فهجرتا الديار، ولاذت إلى مكان قصى قرب جبل «حنين» نصبت فيه خيامًا، ومعها بعض الخدم والعبيد، وعدد من الشاء والإبل، جوار عين صغيرة تفيض بالماء العذب.

والحقيقة أن عاتكة امرأة غريبة الشأن، متقلبة المزاج، مثيرة ذات جمال آثر، وحديث مؤرق وعناد عجيب، لعلها الإنسان الوحيد الذى استطاع أن يعبث بعواطف مالك، ويجرعه العذاب والحيرة، ويلهب روحه بسياط الحرمان.. وما أقل ما كان يشعر بالحرمان فى حياته، فكل ما يطلبه فهو مجاب.. لا يعرف التردد أو اليأس، إرادته أقوى من الفشل والرهبة.. لكن ها هو أحد عبيده يعود، ويواجهه برفضها.. أهناك امرأة تستطيع أن ترفض لقاء مالك بن عوف؟؟

ولم يطل به التفكير، فركب جواده وانطلق عبر الدروب، دون أن تصحبه كوكبة من الفرسان.. لم يكن أحد يتصور أنه فى ظل الاستعداد الحربى الكبير يمكنه أن يفكر فى شىء غير الحرب..

●●●

حين بلغ خيمتها، قالت إحدى الجوارى :

- «إن مولاتى لا تستقبل أحدًا اليوم . . » .

نحاها فى غلظة، وأزاح ستارًا صغيرًا فوجدها متكئة على وسادة قاتمة، وعيناها الواسعتان ذات الرموش الطويلة، ترمقانه فى استعلاء، كان خداها يتوقدان احمرارًا، وسمرة وجهها الخفيفة تشعر جمالاً آسرًا، وغدائرها السوداء تغمر كتفيها الممتلئتين وتتدلى على صدرها المكتنز، كان ينوى أن ينقض عليها ركلاً وضربًا، لكن نظراته الغاضبة، استحالت إلى رقة وضراعة واستسلام وهمس :

- «طاب مساؤك يا عاتكة . . » .

قالت فى اقتضاب :

- «أتدخل مسكنى عنوة؟؟» .

- «إن سيد هوازن أتى طائعًا ينشد رضاك . . » .

- «أجئت محاربًا أم طالب ود . . ؟» .

- «بل متعبدًا لجمالك، طالبًا الصفح . . » .

- «ففيم الحديث عن هوازن؟ أنا لا أعرف سوى مالك بن عوف . . » .

- «مالك خادمك المطيع . . » .

- «لكنى لا أريدك الليلة».

- «لماذا يا عاتكة؟؟».

لم تتحرك من رقدتها، وقالت فى ثقة:

- «لأنى أريد الوحدة».

- «إنك تعذبيننى».

- «هذا ضرورى».

- «ولماذا؟؟».

- «لا حياة بلا عذاب».

وخطا نحوها فى وجل وبدا الشحوب على وجه الفارس العملاق ابن الثلاثين، وجلس إلى جوارها متأدبًا مرتجفًا، وتمتم:

- «لا أطيق البعد عنك..».

- «وأنا لا أقبل أن تطاردنى كل مساء».

- «أنا أحبك».

- «فلتحترم إرادتى».

- «لا أستطيع.».

ابتسمت، ثم لمست يديه المرتجفتين، وقالت:

- «ماذا تريد؟؟» .

- «أريد أن أجعل منك سيدة هوازن المرموقة» .

- «أنت تعتقد أن فى ذلك تكريمًا لى» .

- «لا شك» .

- «لكنى أرفض» .

- «لِمَ؟؟» .

- «أكره القيود . .» .

- «نتزوج . .» .

- «أسمع هذا الكلام للمرة الألف ، أنا لا أبغى الزواج» .

أمسك بيدها اللدنة فى ضراعة ، وقال :

- «إننى حائر . . . ترفضين الزواج ، وتضنين علىّ بجمالك . . أين الطريق إلى قلبك . . ؟» .

هزت كتفيها فى دلال قائلة :

- «لا أعرف . .» .

تطلع إلى مفاتنها الصارخة بالتحدى والتأبى ، فاجتاحته موجة من الضيق والعجز ، فضغط على يدها دون وعى ، فصرخت :

- «ستحطم يدى».

تلعثم، ثم سحب يده، ودار بنظراته الحائرة فى جنبات الخيمة الخافتة الضوء، وتمتم:

- «إننا نكاد نكون متلاصقين، لكن أشعر بأن بينى وبينك بُعد ما بين المشرق والمغرب.. وهناك فى بيتى تملئين عالمى، ورائحتك لا تفارق خياشيمى.. أنت ساحرة..».

شبكت يديها، ثم تمددت ووضعتهما تحت رأسها، وقالت:

- «مملكتى الصغيرة هنا أعظم من سلطان هوازن».

- «أنت ترجحين الدنيا بكاملها..».

- «أنا أحب الوحدة، وأكره الناس..».

- «وأنا؟؟».

لم تجب على تساؤله، واستطردت:

- «أنا أحتقر الناس جميعًا.. أحتقر أفكارهم.. وتقاليدهم.. وأكره قوتهم وضعفهم.. وغناهم وفقرهم..».

ثم هبت من رقدتها، وأخذت تدفعه بغتة قائلة:

- «اخرج.. اخرج.. لا أريد أن أرى أحدًا..».

●●●

بقى عتيداً كالصخرة، وحط على قلبه حزن عميق أسود، بينما أخذ يخفق بشدة ووجهها الشرس الغاضب المتوتر يفيض إثارة، ويولد فى نفسه رغبة محمومة.

قال مهدئاً:

- «إننى أستطيع أن أسفك دمك بسيفى هذا».

أخذت تضحك وتضحك، والدموع فى عينيها، وجسدها كله يهتز مع ضحكاتها، وقالت:

- «وبعد..».

- «أستريح إذ أنتقم لعجزى وكبريائى..».

وهمست فى استهتار:

- «يا طفلى العزيز.. إن دمى إذ يسيل إنما يزيدك حسرة ويأساً.. ولن تجنى سوى الحرمان.. والحرمان فى هذه الحالة سيكون أزلياً طويلاً.. لا نهاية لعذابه..».

ثم رمقته بعينين متمردتين:

- «لا تذكر الدم والسيوف مرة ثانية وإلا بصقت فى وجهك..»..

أخذلتوه، وضايقته كلماتها العارية من كل أدب، وتمتم:

- «إن فيك قحة . . » .

- «ولذا فأنت تحبنى . . » .

- «لم أتسامح مع إنسان لهذه الدرجة . . » .

- «والقوة ليست فى السيف والذراع . . » .

ثم هزت كتفيها مستطردة :

- «أنا لا أملك قوة بدنية ولا سيفًا . . » .

ثم ركزت نظراتها فى وجهه المتوتر ، وقالت :

- «ومع ذلك فأنا أقوى منك . . » .

قال مالك :

- «هل أنت مجنونة؟؟» .

قالت :

- «أنا أكره الزيف والغرور والنفاق ، فكيف يأتينى الجنون؟؟» وصفقت بيديها ، فأتت الجارية مهرولة ، فقالت عاتكة وهى تعود إلى اتكائها على وسادتها :

- «كأسًا لسيد هوازن . . لا شك أنه قد استبد به الظمأ» . .

كان فى حيرة من أمرها ، تبش فى وجهه ، ثم تعود فتعبس وتقربه منها ، ثم تصده عنها ، يشعر أحيانًا أنها حبه وتبدى الارتياح

لوجوده، وأحيانًا أخرى يصاب باليأس ويخيل إليه أنها تكرهه، وتكره التراب الذى يمشى عليه، وفى حضرتها ينتابه الضعف والشك، ويفقد الثقة بنفسه وبآرائه، كلماتها جارحة وآراؤها غريبة، ترفض أن ننصاع لرأيه، فيذوب تصميمه وتتلاشى إرادته، حاول أن يتخذ منها عشيقة ففشل، أبدى استعداده للزواج فرفضت، إنها تلهو به بين اليأس والرجاء، وتحيل حياته إلى قلق مشتعل لا يهدأ أواره. . رشف من الكأس رشفات، فسمعها تقول:

- «سمعت أنك تحشد قبائل هوازن ونصر وثقيف وجشعم لحرب محمد. .».

- «أجل. .».

قالها فى فخر واعتزاز.

قالت فى هدوء:

- «أوَ تنجح فيما فشلت فيه قريش واليهود؟؟».

- «لا يساورنى أدنى شك فى ذلك».

- «وإذا هزمت. .».

- «لم يرد هذا الاحتمال لى على بال. .».

- «إذن فأنت لا تعرف ما الحرب. .».

- «الحرب شجاعة وصبر وإصرار . . ».

- «قد يكون الانسحاب ضربًا من الشجاعة».

- «هراء . . الحرب كر . . ».

- «من لا يعرف المراوغة والكر والفر فهو ليس بقائد . . ».

وقبل أن يعلق على كلماتها، هتفت بصوت جريح حزين :

- «أتدرى لماذا أرفض الحب والزواج؟؟».

قال فى لهفة :

- «لماذا؟؟».

- «لأنى أخاف أن يأتى يوم ثم أبحث فيه عنك فلا أجدك».

وسالت دموعها، وهى تستطرد قائلة :

- «كنت أحب زوجى حبًا لا مثيل له . . أبتسم للفجر الوليد . . وأنعش قلبى بنسيم الماء . . وآكل وأشرب . . ونمرح فى حلم جميل . . آه . . واقتتل الحيان من أجل صبية يلعبون فى المراعى وسط الإبل والأغنام . . وأخذ الرجال يتساقطون . . قضى على كل عشيرتى . . ومات زوجى فى النهاية . . أتوا به جريحًا . . نظرت إلى وجهه الفتى وهو يودع الحياة . . كنت أقرأ فى عينيه رغبة جامحة للتشبث بالحياة . . ».

ثم أخذت عاتكة تلوح بيدها فى ثورة وكأنها تخاطب زوجها :

- «أيهـا الأحـمق . . لم تريق دمك بلا مـعنى؟؟ لماذا تهـدم عـشنا الجميل من أجل صبية يلعبون . . آه . . الشرف الكرامة . . أية كرامة . . وأى شرف . . فى صبية يختلفون أو يتعاركون وهم يلعبون . . ؟» .

كان مالك يستمع إليها وهو مطأطئ الرأس . . ثم أخذت تجفف دموعها ، وتقول :

- «إننى أتمنى أن ينتصر محمد . . » .

وانتفض مالك كمن لدغته حية . . وتصبب عرقًا وكلماتها ترن فى أذنه «ينتصر محمد» . . «ينتصر محمد» . . «ينتصر محمد» . .

ودون أن يشعر وجد يده تمسك بمقبض سيفه وتسله بسرعة من غمده . .

أخـذت يد مـالك تسـحب السـيف من غـمـده ، وهو فى هيـاج شـديد ، بينمـا كـلمـات عـاتكة تدوى فى أذنه . . «أتمنى أن ينتـصـر محمد» . . «ينتصر محمد» . . ونظر نحوها بعيون أعماها الغضب والحنق ، ولكنها كانت ثابتة ، تنظر إليه بهدوء . . كانت النظرة التى فى عينيها أقوى من غضبه ، وأخذت يده تعود بالسيف مرة أخرى إلى غـمـده . . وقـال كـمن يريد أن يكذب أذنه ، أو كـمن يتمنى لو تراجعت عما قالته :

- «ماذا؟ ماذا تقولين؟» . .

ولكنها قالت بثبات:

- «صدقني . . إنى أتمنى اليوم الذى أعتنق فيه دعوة محمد . . » .

- «أنت تهذين» .

لم تكترث لكلماته، واستمرت فى حديثها:

- «مَنْ كان يصدق أن الثارات القديمة سوف تخمد بين الأوس والخزرج؟؟ آخى بين الجميع . . بين المهاجرين والأنصار . . إنه لا يحارب من أجل ناقة سرقت، ولا شاة ذبحت، ولا صبية يلعبون ويصطرعون . . ولا يسفك الدماء من أجل بئر ماء عذب . . الشرف والكرامة عنده لهما معنى آخر يملأ القلب، ويمتع الفكر . . » .

هبَّ «مالك بن عوف» واقفًا، وهتف:

- «ما جئت لأتلقى على يديك تعاليم محمد» .

- «أنا لم أدعك للمجىء . . ولك أن تسمع كلماتى أو تنصرف . . وجودك أو عدمه لن يكون ذا أثر على آرائى . . وتستطيع أن تخطو خطوات قليلة، وستجد نفسك بعدها فى عرض الصحراء . . أم تراك فى حاجة لمن يأخذ بيدك؟؟» .

تحسس مقبض سيفه وظل جامدًا، ثم سمعها تقول :

- «لدينا لبن وتمر» .

إنه لا يميل إلى هذا الخليط، وكلما أتت به زوجته، تناول قليلاً منه، وسرعان ما تعافه نفسه، لكنه هنا يجد لذة كبرى فى تناول أى طعام تقدمه له، ولم تنتظر عاتكة رأيه، بل صفقت بيديها، فهرولت الجارية قادمة، ثم أمرتها بأن تحضر اللبن والتمر، وما إن انصرفت الجارية حتى رأت «مالك بن عوف» يجلس فى استسلام وهدوء . . وسادت فترة صمت قال مالك بعدها :

- «لا سبيل سوى الحرب» .

- «بل هناك البديل . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «أن نفتح قلوبنا لكلمات محمد» .

- «كيف؟؟ يا للعار!» .

- «أى عار . . لن تخسر شيئًا» .

- «سيقول الناس إن مالك بن عوف جبان . . وستقول هوازن إن «دريد بن الصمة» كان على حق . . وستسخر منى زوجتى . . وأنت! ماذا ستقولين عنى؟» .

قالت فى هدوء غريب :

- «أنت تحركك نوازع تافهة» .

- «وأنت؟؟ تريدين الحفاظ على حياتى كى نتزوج . . بماذا تصفين نوازعك هذه؟؟» .

ضحكت قائلة :

- «أنت مغرور . . من قال إننى سأتزوجك؟» .

بهت لسماع كلماتها ، واستبدت به الحيرة ، وغلت الدماء فى عروقه ، أغمض عينيه ، شعر أن الأرض تدور به ، لشد ما أرهقت تلك المرأة أعصابه وفكره وجسده ، النظر إلى وجهها يقلب كيانه ، ويربك عقله ، أعطاها ظهره ، وأسرع خارجًا ، وجاءه صوتها :

- «إلى أين؟ . . » .

- «إلى . . إلى . . » .

- «اللبن والتمر . . » .

- «كليه أنت سمًا زعافًا» .

وانطلق . . لكنه سمع من خلفه أنينًا خافتًا سمَّر قدميه فى الأرض بضع لحظات . . ثم استأنف المسير . . وعاد وتوقف ، لكن لم يكن لديه وقت . . هناك الرجال من ثقيف وهوازن ونصر

وجشعم . . إنها ليلة حاسمة . . لولا ذلك لبقى مع عاتكة برغم قحتها وكلماتها الحادة . . إن الأمر جد خطير . .

تنادت هوازن للحرب ، وحشدت حشودها وتوافد رجالات ثقيف وقبائل جشعم ونصر ، ولمعت السيوف تحت وهج الشمس ، ونزلت جموعهم بواد يقال له «أرطاس» ولم يغب عن المسلمين نوايا هوازن وجندها ، فخرج الرسول فى عشرة آلاف وهم الذين فتحت مكة أبوابها لهم ، مضافًا إليهم ألفان من أهل مكة بينهم أبو سفيان ومعاوية ويزيد وولداه والعباس وغيرهم . .

وقفت عاتكة فى مكان مرتفع تشهد الزحف الكبير الذى يغطى مساحة شاسعة من الجبال والأودية ، ورأت نساء كثيرات وأطفالاً وإبلاً وشاء . . وتطلعت إلى الحركة الموارة الدائبة . .

- «آن يا جاريتى الوفية أن نترك هذا المكان» .

- «إلى أين نرحل؟» .

- «نذهب بعيدًا إلى الوراء فما بنا حاجة لنلتذ برؤية الدماء . . » .

- «لكن هوازن خرجت بنسائها ورجالها وأطفالها؟» .

- «معركة حياة أو موت» .

ثم التفتت إلى جاريتها قائلة :

- «أليس الموت أهون من هذا العناء؟؟» .

ولما لم تجب الجارية عادت «عاتكة» تقول:

- «يا طول عذاب النساء..».

قالت الجارية فى خجل:

- «لكن الرجال يحاربون ويموتون.. وهذا شىء مرير..».

وقوضت عاتكة خيامها، وحمل الخدم والعبيد متاعها، وساقوا إبلها، وركبت هى وأمها العجوز الهودج العالى، وأزمعوا المسير إلى الوراء بعيداً عن المعركة..

●●●

وخرج العجوز «دريد بن الصمة» مع الخارجين، وحينما استقر به المقام، جلس يلهث ويستمع لما يجرى باهتمام، وتمتم:

- «بأى وادٍ أنتم؟».

قال مالك:

- «نحن فى أرطاس».

- «نعم مجالاً للخيل!».

وسُرَّ مالك لسماعه ذلك الإطراء، إن المكان الذى نزل به يعتبر أروع مكان للمعركة المقبلة، بشهادة حكيم جشعم «دريد»، لكن ابن الصمة لوح بيده إشارة للصمت، ثم قال:

- «مالى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء؟».

وكان مالك قد انصرف عنه، فرد أحد الواقفين قائلاً:

- «ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم».

ضرب «دريد» كفًا بكف، وقال فى دهشة:

- «ماذا؟ وأين مالك؟؟».

فأسرعوا باستدعائه، فقدم فى كبرياء وصلف دون أن يتكلم.. بينما قال العجوز الكليل البصر دريد بن الصمة:

- «يا مالك بن عوف.. إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فلِمَ فعلت ذلك؟؟ لِمَ خرجت بالأطفال والنساء والأموال؟؟».

قال مالك فى ثقة لا حد لها:

- «أردت أن أجعل وراء كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ويستميت فى الدفاع..».

وابتسم دريد بن الصمة فى سخرية، ورفع إليه وجهًا مغضنًا عميق الأخاديد، وقال بصوت مرتفع مرتعش:

- «لست محاربًا بارعًا يا مالك، أنت راعى ضأن والله، هل يرد

المنهزم شيء؟؟ إنها إن كانت لك، وصمدت وتقدمت، فلن ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن دارت الدائرة عليك فضحت في أهلك ومالك..».

اكفهر وجه مالك، واجتاحته موجة عارمة من الضيق، وقال:

- «لن أتزحزح عن رأيي، العدو قادم، ونحن نناقش أمورًا حسمناها..».

هز «دريد» رأسه الأشيب في أسى، وقال:

- «ماذا فعلت قبائل كعب وكلاب؟؟».

قال أحد الحاضرين:

- «لن يشهد المعركة أحد منهم..».

بدا الضيق والعجب على وجه «دريد».. كان يعلم أن كعبًا وكلابًا من أمهر المحاربين، وأحسنهم تمرسًا في فنون القتال والخبرة، ولذا قال:

- «غاب الحد والجد.. لو كان اليوم يوم علاء ورفعة لما غابوا.. آه.. والله لوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب..».

هاج مالك وماج، وأبدى احتجاجه الشديد على ذلك التصرف من «دريد» ورماه بالخوف والخرق، مؤكدًا أن مثل هذه

الاعتراضات ليس وراءها سوى توهين العزائم، وإثارة الشكوك والمخاوف، بل تمادى الظن السيئ بمالك بن عوف، واتهم البعض بأنهم حاقدون عليه، يغارون منه ومن المجد الذى سيتحقق على يديه، وكان مالك قد أرسل عيونًا له كى يتسللوا إلى مواقع المسلمين، ويأتوه بالأنباء عن استعداداتهم وحشودهم وخططهم، وفى هذا الوقت عاد هؤلاء الرسل هلعين مرتاعين، قد تفرقت أوصالهم من شدة الخوف، فقال لهم مالك :

«ويلكم ما شأنكم؟؟».

قالوا: «رأينا رجالاً بيضًا، على خيل بلق، والله ما تماسكنا إن أصابنا ما ترى..».

فأشبعهم سخرية مرة، ونقدًا لاذعًا، وعاب عليهم ذلك التخاذل المشين، وأكد لهم أن النصر لهوازن.

ولم يجد دريد مناصًا من أن يترك الأمر لمالك يتصرف كيف شاء وأنه لم يقتنع مطلقًا بسوق الأطفال والأموال خلف المحاربين، وأوصى بأن يوضع النساء والأطفال والأموال فى أماكن ممتنعة، وأماكن نائية عن الميدان، حتى تتيسر لهم النجاة إذا دارت الدائرة على هوازن وحلفائها.

فصاح مالك فى إصرار :

- «والله لا أفعل، إنك يا «دريد بن الصمة» قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى..».

فأذعن الحاضرون لرأيه..

وخرج مالك إلى حيث يتجمع الشباب، ويعدون العدة للمعركة، هو يعلم أن كلماته تصل إلى قلوب هؤلاء الشباب، فينفعلون بها، إنهم مثله يضيقون بحكمة كبار السن ورويتهم وتخوفهم، وينكرون عليهم التردد والتحفظ، وقف مالك بينهم قائلاً:

- «أيها الرجال.. أتدرون معنى انتصارنا؟؟ لئن تبددت قوات محمد، وقضينا على جيشه، فستدين لنا مكة، وستخضع المدينة، وتركع القبائل المتناثرة هنا وهناك مستسلمة، وستضيق بيوتنا ومرابعنا بالغنائم والسبايا التى نحصل عليها.. سنصبح ملوك العرب.. وتستطيع سيوفنا أن تجمع هذه القبائل العربية كلها على قلب رجل واحد.. وستصبح هوازن أغنية على الشفاه، وقصيدة عصماء يترنم بها الشعراء فى آفاق الدنيا..».

اتقدت حماستهم، وهتفوا صاخبين:

- «نحن وراءك مالك بن عوف.. نحن جنودك..».

- «واعلموا أيها الرجال أنه إذا حاقت الهزيمة بمحمد فى البداية، فلسوف يفر أتباعه. . بل سيسوقونه أسيراً إلينا، عندئذ نعبد من نشاء، ونكفر بمن نشاء. . وتكون لنا جنة من صنع سيوفنا. . ويكون لأعدائنا الجحيم الأبدى. . والموت والدمار. . ».

وهدروا مرة أخرى :

- «معك حتى النصر يا مالك بن عوف. . ».

●●●

أطل المساء، وانطلق مالك صوب الفضاء حيث يخف الزحام والضجيج، أراد أن يفرغ لنفسه بعض الوقت، كى يتدبر أمره، ويفكر فيما يأتى به الغد، هكذا قال لنفسه، لكن الحقيقة التى يحاول إخفاءها حتى مع نفسه، هى أنه كان يريد أن يبلغ مقر عاتكة. . شىء ما يجذبه إليها دائماً. . ترك الجيش. . والرجال. . والحديد. . والشاء والإبل. . والنساء من أجلها ليتزود بنظرة، أو يستمع إلى كلماتها الحادة التى تؤلمه وتثيره، وبرغم ذلك فهو حريص على الالتقاء بها. . هذه الألوف تدين له بالطاعة والولاء، وهو بدوره يخضع لعاتكة. . معنى ذلك أنها برغم وحدتها وضعفها أقوى منهم مجتمعين. .

إنه لا يصدق عينيه . . ها هى النخلات الثلاث وعلى بعد صغيرة الأكمة الخضراء . . لكن أين حظائر الشاء والإبل؟؟ أين الخيام . . ؟؟ هرول يجهد خطوه وبصره . . ويتشمم الآثار . . تلك بقايا نيران . . وأوتاد منسية . . ومزاود . . وروث جمال وشياه . . لكن الصمت يضرب أطنابه . . أضحت . . آه . . صدق الشاعر :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

عشش فى رأسه يأس وتشاؤم ، شعر أنه قد افتقد مصدراً من مصادر قوته وعزيمته ، بدا إنسانًا حزينًا متوترًا عاجزًا . . الكارثة أنه يحن إلى البكاء . . الوجوم يختلط بالظلام ويلفع الوجود من حوله . . ما قيمة الحياة . . إنها سمجة مقيتة . . تبتسم لكنها تتسم بالعناد والسخرية والتحدى . . يا للمأساة!

وسمع نداء يشق الظلام :

- «يا مالك بن عوف . . يا مالك بن عوف . . أين أنت؟؟» .

كان أحد رجال هوازن يبحث عنه :

- «يا مالك . . إن محمداً وجيشه قد رابطوا عند مدخل وادى «تهامة» . . . ويرى دريد أن نسرع قبلهم ونختبئ فى الشعاب والمنحدرات والكهوف ، حتى إذا ما انطلقوا داخل الوادى فاجأناهم عند الفجر من كل صوب . . » .

هز مالك رأسه قائلاً :

- «إنها فكرة رائعة . . ولن يفلت المسلمون . . » .

●●●

الفجر يوشى التلال بتيجان فضيته ، والصمت ينشر رداءه على الوجود ، وتقدمت قوات المسلمين إلى وادى تهامة ، وقال قائل :

«لن نغلب اليوم عن قلة» ، فقد كان المسلمون فى جيش لم يجتمع بمثل هذا العدد فيه قبل ، وصادفت هذه الكلمة هوى فى نفوس المسلمين ، وملأت نفوسهم ثقة وإعجابًا ، غير أن رجلاً مؤمنًا آخر تمتم :

- «لا تقولوا هذا القول ، ولا تغتروا بكثرتكم ، فالنصر من الله وبالله ، ولن تغنى الكثرة شيئًا . . » .

وما إن توسط المسلمون الوادى ، حتى انقض الأعداء عليهم من كل جانب فى عماية الصبح ، لقد سبق العدو ، واتخذ المواقع الحصينة ، وأحكم مالك بن عوف خطته ، وانهالوا على المسلمين بالنبال والحراب ، فأربكوا صفوفهم ، وأثاروا الاضطراب فى نظامهم ، فاختلط الأمر ، وتخبط المسلمون ، لكأن الله أراد أن يلقنهم درسًا خالدًا ، ويشعرهم بأن الكثرة وحدها لا تحقق نصرًا ، أو تحقق غنمًا ، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوون على شىء . . .

وزمجر خالد فى غضب وهو يرى أبطال الفتح يتراجعون :

- «ما الذى جرى؟؟ إنى لا أصدق عينى . . » .

ورد أبو سفيان ساخراً، وكان حديث عهد بالإسلام، موتوراً لنجاح المسلمين فى فتح مكة وإزالة سلطانه، رد أبو سفيان قائلاً :

- «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . . » .

وقال منافق آخر :

-«ألا بطل السحر اليوم . . لقد انكشف المسلمون . . وحاقت بهم الهزيمة . . » .

إنها أوقات رهيبة حاسمة، فيها تتبدى دخائل النفوس وأهواؤها، فالذين آمنوا بالأمس كذبًا ونفاقًا، ترتسم ابتسامة التشفى على شفاههم، وتغمر الشماتة قلوبهم، فيبثون أراجيفهم وسمومهم بين الجيش ويحطمون من روحه المعنوية .

ويقهقه «مالك بن عوف» فى طرب ويهتف :

- «أين دريد بن الصمة، ليرى بنفسه كيف تحطم سيوفنا أساطير الادعاء والزيف؟؟» .

ووقف رسول الله ﷺ يرى القبائل المسلمة تفر فصاح فى إيمان قوى لا يتزعزع :

- «إلىَّ أيها الناس . . أنا النبى لا كذب . . أنا ابن عبد المطلب . . » .

وهتف الرسول بعمه العباس قائلاً :

- «أى عباس . . اهتف بأصحاب السمرة (أى بيعة الرضوان)»

فنادى العباس :

- «يا أصحاب السمرة . . يا أصحاب سورة البقرة . . » .

فكان الرجل من المسلمين يحاول أن يوقف بعيره ويرده إلى المعركة ، فلا يقدر ، فيأخذ سلاحه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت ، وينحاز إلى الرسول ، وأتى أصحاب بيعة الرضوان من كل صوب ملبين نداء النبى ، وهم يهتفون «لبيك . . . لبيك» حتى اجتمع إلى الرسول مائة منهم . استقبلوا الأعداء وقاتلوهم فى عنف وصبر ، ثم نادى النبى : «يا للأنصار . . يا للأنصار» ، وبعدها نادى : «يا لبنى الحارث بن الخزرج» وكانوا أقوياء الشكيمة ، صبراً عند الحرب . . فازداد احتشاد المسلمين حول الرسول ، واستقامت صفوفهم وأخذوا يكرون وقد انجلى الظلام ، وملأ نور الشمس الكون ، وحمى وطيس المعركة . . ثم أخذ رسول الله حصيات ، فرمى بها وجوه الأعداء ، وهو يقول : «انهزموا . . » .

ووجهت هوازن وحلفاؤها بمقاومة عنيدة كالصخرة، كانت موجات الهجوم تتكسر ومالك بن عوف يتراجع برجاله . . لم تكن السيوف وحدها هى التى تعمل، كانت نداءات المسلمين تشق الآفاق :

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده..

لمن النصر اليوم؟؟ لله الواحد القهار

ونظر مالك إلى رفاقه وهم يفرون، صرخ فيهم :

- «قفوا أيها الجبناء . . واثبتوا . . ».

قال رجل من هوازن وهو يهرب فوق جواده :

- «إنهم لا يهزمون . . انجُ بنفسك يا مالك بن عوف . . ».

- «أأترك نساءك وأطفالك وأموالك . . »..

- «نفسى . . نفسى . . ».

دارت الأرض بمالك بن عوف، تذكر نصائح «دريد بن الصمة» . . اهتاجت فى نفسه مرارة قاتلة، وساوره ندم مفزع، لماذا لم يستمع لرأى ذوى التجربة والخبرة؟؟ «لا . . لا . . إننى على حق . . لم أخطئ . . إن دريد واهن القوى، مضطرب الفكر»،

وجاء صوت رجل مسلم إلى مالك بن عوف . . وتلاقى الرجلان بسيفيهما . . كان مالك يضرب فى حقد واستماتة وصمت، وكان المسلم يهتف به وهو ينازله : «لماذا تسد الطريق أمام كلمات الله يا مالك؟ لماذا لا تترك لقومك حرية الاختيار؟؟ إننا ندعو إلى الأخوة والعدل والحب، تحت لواء وحدانية الله، خالق الإنسان، وبارئ الأرض والسماء . . وأنت إلى أى شيء تدعو الناس يا مالك بن عوف؟ إنك امرؤ مغرور يحركك الوهم، وتدفعك الترهات البالية . . ».

كانت هذه الكلمات أشد إيلامًا لنفس مالك من وقع السيوف . . ووجد مالك نفسه وحيداً . . هرب جنوده . . والمسلمون يوشكون أن يطبقوا عليه . . لوى زمام فرسه، واتجه إلى الخلف . . مزمعًا الفرار . . آه . . أيترك أهله؟؟ يا للكارثة! أيخلفهم ليصبحوا سبايا وغنائم . . وهو الذى أمر بسوقهم إلى الميدان كى يبعثوا فى قلوب المحاربين الشجاعة، ويبثوا فى نفوسهم الثبات والإصرار . . لكن أمن العقل والحصافة أن يظل يحارب حتى يموت؟؟ لماذا لا يفر، وينجو بحياته حتى يجد فرصة أخرى يثأر فيها لكرامته وأهله؟؟ عشرات النوازع تتقاذفه وتملؤه بالحيرة والارتباك . .

●●●

لكنه فى النهاية يولى هاربًا.

وتنتهى المعركة، وينتصر المسلمون.. وتسقط هوازن.. الأسرى ستة آلاف.. والإبل التى غنمها المسلمون أربعة وعشرون ألف رأس، والغنم أربعون ألف شاة.. والفضة أربعة آلاف أوقية..

- هدر الأسرى: «اللعنة على مالك بن عوف، كشف الستر وأغوى التعساء، وساق الناس إلى الهاوية.. ثم ولى هاربًا تاركًا وراءه الخيبة والعار، وسوء الأحدوثة..».

وانعكست شمس الأصيل على قمم الجبال والتلال، فبدت فى صفرة الذهب البراق، وشهد جبل «حنين» طرازًا جديدًا من الناس يركعون.. ويسجدون لله شكرًا..

●●●

وكان مالك يسابق الريح بجواده الأصيل، حتى أصبح فى مأمن من المسلمين وكان يقصد «الطائف» وقد سبقه إليها عدد كبير من المنهزمين، ومعهم رجالات ثقيف الذين نجوا من الموت، آملين أن يلتقطوا أنفاسهم ويبدأوا المعركة بعد أن تندمل الجراح، ويذهب الروع...

وعند منحنى أحد الدروب، خفف الجواد من سرعته، ونظر

مالك إلى يمينه فرأى عاتكة تقف أمام خيمتها، وحولها الخدم والجوارى . . وتوقف عن المسير . .

آه . . ماذا ستقول عاتكة . . ليت الأرض تنشق وتبتلعه! لماذا توقف؟؟ أما كان من الأفضل أن ينطلق إلى الطائف، حتى ينجو من كلماتها الجارحة، وعتابها الأليم . . لكن قوة خفية تجذبه إلى خيمتها جذبًا، قوة لا يستطيع منها فكاكًا . . بل إن مالك يشعر أنه فى مسيس الحاجة إلى عاتكة أكثر من أى وقت مضى . . إنه يريد صدرًا حنونًا لينًا، يريح عليه رأسه، ويبثه نجواه وأساه . . إحساس جديد بأنه أصبح كطفل تائه . . حزين . . محروم من الحب والحنان . .

قالت وقد رأته مطرقًا معفرًا واجمًا :

- «هل أتيت؟؟» .

- «ليتنى ما أتيت . » .

وشعر برغبة فى البكاء، لكنه تمالك نفسه .

قال : «هيا بنا إلى داخل الخيمة . . » .

تردد قليلاً ونظر إلى بعيد صوب الميدان المضرج بالدماء . .

عاجلته بقولها :

- «لا تخف. . لن يطاردك أحـد. . لن يفكر المسلمـون فى مواصلة الزحف قبل عدة أيام. . ».

شـعـر بالخجل، لكأنها تقرأ أفكاره، وحينما اتكأت على وسادتها، ونظر إلى وجهها فى حياء. . العيون القاهرة الواسعة. . ذات الرموش الطويلة. . والوجه الأسمر الفتى الذى يفيض إثارة وجمالاً وأسى. .

- «كنت واثقة أنك ستأتى. . ».

- «لم أكن أعرف طريقك. . لقد هجرت المكان فجأة. . بحثت عنك دون جدوى. . ».

- «أكان لديك وقت للتفكير فى شىء غير الحرب. . ».

- «عاتكة. . أنت فى جسدى وروحى وعقلى. . ».

- «ما أعجب إيمانك. . ».

- «أنت الحقيقة الوحيدة التى أؤمن بها. . ».

ابتسمت وتمطت ثم قالت:

- «أتريد الصدق؟؟».

- «أجل يا عاتكة. . ».

- «أنت لا تحب إلا نفسك. . ».

- «أنت تظلمينني . . » .

استدارت إليه بوجه مكفهر :

- «وأنا أكره النذالة والنفاق . . » .

حط على قلبه همٌّ ثقيل ، وقال :

- «هل هذا هو العزاء؟؟» .

هدرت فى نبرات قاسية :

- «جئت تستجدى عطاء امرأة . . وتركت خلفك آلاف الضحايا يتعذبون . . مَنْ المسئول؟؟» .

خفض رأسه ، والعذاب يطحن مشاعره ، وهَمْهَمَ :

- «أنا المسئول . . » .

- «النساء الآن يتعذبن ويولولن . . وفيهم امرأتك . . » .

- «أعرف . . » .

- «ثم تأتى وتتكلم عن الحب . . » .

نظر إليها فى ضراعة :

- «أريد كأسًا من خمر . . رأسى يلتهب . . » .

- «حطمت الأوانى يا مالك بن عوف . . ولم يعد لدىَّ سوى اللبن والتمر . . » .

- «لماذا يا عاتكة؟؟».

- «الخمر خداع.. تصنع وهمًا.. تنسج خيوط سعادة زائفة.. ثم تنقشع السراب.. ويتجلى العناء بوجهه البشع..»، وصاحت بصوت ثائر:

- «كن يقظًا يا مالك بن عوف.. تعذب.. ولا تهرب.. فلتعانِ من سياط الضمير.. خض جحيم الآلام.. واجه تفاهتك وغرورك.. ومصيرك الدامى.. الخمر طمس نموك الروحى والفكرى.. تخدعك.. المعاناة الأليمة تخلق منك إنسانًا جديدًا..».

انقذف نحوها، حاول أن يطوقها بذراعيه، بينما دموعه تنهمر ونحيبه يعلو، أسرعت ودفعته فى لطف، وقالت:

- «لم تعد طفلاً.. كنت بالأمس سيد قومك..».

- «إن كل شىء فيك يشتعل..».

- «دع ذلك.. فلست لك..».

هتف فى رعب:

- «لماذا؟؟».

- «أنا أبحث عن إنسان..».

- «وأنا؟؟».

- «لم تتخطَّ مرحلة الطفولة بعد، على الرغم من لحيتك وشاربك الكث، وجسدك القوى..».

- «لكننى لا أستطيع الحياة بدونك..».

- «بل تستطيع.. ألم أقل أنك لم تزل طفلاً!».

قال فى بأس:

- «أهناك رجل غيرى، أنت معه على موعد؟؟».

قالت:

- «بل رجال كثيرون».

- «كيف؟؟».

- «لقد قررت أن أعتنق الإسلام..».

- «أنت يا عاتكة؟؟».

- «أجل.. ولهذا فإن حاجزاً ضخماً يقف بيننا، من الصعب اجتيازه..».

قال فى توتر:

- «معنى ذلك أنه يمكن أن تكونى لى إذا..».

قاطعته وهى تقهقه ساخرة:

- «تفكر فى الإسلام من أجلى.. إنه إيمان حقير..».

- «صدقينى يا عاتكة.. أنت اللغز الوحيد الذى استعصى علىّ فهمه..».

قالت وهى ترشقه بنظراتها الفاتنة الحزينة:

- «إذا أردت أن تفهم شيئًا، فلتلغِ ذاتك..».

- «كيف؟؟».

لم تكترث لتساؤله، واستطردت قائلة:

- «لو فعلت ذلك، لتبدت حقائق الأشياء واضحة جلية.. ولعرفت الله..».

قال فى ذهول:

- «الله؟؟ إننى أعرفه من قديم..».

- «كنت تؤكد ذلك أنك أنت الذى تصنع آلهتك.. الآلهة لا تصنع.. هناك إله واحد لا مثيل له..».

هب واقفًا، وقد اشتعل غضبًا:

- «لن أؤمن بمحمد وربه».

قالت دون أن يزاولها هدوؤها:.

- «إن حصاة واحدة لا توقف تدفق السيل. . .».

وشردت إلى بعيد، وهى تقول:

- «وقد يدمر السيل بعض الكائنات. . لكنه يروى ظمأ الأرض المحترقة. . ويشيع فيها الحياة. . فتخضر الروابى. . وتتدلى العناقيد. . وتضحك الزهور. . وتغرد الطيور فوق الأغصان. . وتتحول الدنيا إلى موسم للأفراح. . آه، ما أشد شوقى إلى هاتيك الأفراح. .».

دخلت الجارية فى خوف، وقالت متلعثمة:

- «إن غبارًا كثيفًا يسد الأفق. .».

لم يتوانَ مالك لحظة، بل اختطف سيفه، وجرى خارج الخيمة وامتطى جواده، وانطلق من جديد يسابق الرياح. . وقالت عاتكة فى وجوم:

- «يا للمسكين! لقد انطلق دون تحية أو كلمة وداع. . فى لحظات الخطر نسى الحب. . نسى كل شىء إلا النجاة بنفسه. . لا تخافى يا فتاتى، لابد أن حشدًا من المنهزمين أو فلول هوازن متجهون صوب الطائف. . ونحن سنرحل غدًا إلى حيث يكون محمد. . وهناك نرمى الأحزان خلف ظهورنا. ونولد من جديد. .».

على الرغم من اتساع الطريق، وامتداد الصحراء الشاسعة إلا أنه كان ضائق النفس، منهك الروح، يشعر بضياع محزن لم يكن مالك وحده، فقد التقى بعديد من الفلول المنهزمة، وكل واحد يمضى شاحبًا مطرقًا تعبًا. . . بالإضافة إلى الجراح الجسدية التى أصابت الكثيرين منهم. . ومالك يفكر فى زوجه وأهله. . هى الآن إحدى السبايا، فقدت حريتها وكرامتها، إن من يقوم على خدمتها الخدم والحشم، أصبحت الآن مجرد أمة تباع وتشترى. . . أصبحت ملكًا لغيره من الرجال. . زوجة مالك بن عوف النصرى أصبحت إحدى السبايا؟؟ أية كارثة أبشع وأقسى من ذلك؟؟ لا يهم إن كان يحبها أو يكرهها. . المهم أنها زوجته. . هذه الحقيقة المرة تصفعه بشدة. . والرجال الهاربون الملتفون حوله يعلمون ذلك. . لقد خسر كل شىء. . أما كان من الأروح له أن يموت حتى لا يتعذب وهو يشهد مصرع كرامته وكبريائه وآماله؟؟ لكن لا. . يجب أن يعيش. . ويستعد ليوم آخر، فالحرب سجال، ويوم أن ينتصر على المسلمين، عندئذ يستطيع أن يثأر لأحزان تلك الأيام الرهيبة، ويتقدم فى إباء وشمم، وينتزع زوجه وأهل بيته انتزاعًا من أيدى الذين سبوهم، ثم يسفك الدماء ويشفى غيظه بأعنف انتقام عرفته العرب. . هو فى طريقه الآن إلى الطائف، والطائف قد أصاب رجالها من ثقيف قدر كبير من الهزيمة، فهى لا تفتقر إلى

الحقد والإصرار العنيد كى تثأر هى الأخرى لشرفها، والطائف قوية التحصين صامدة القلاع شديدة المراسى . .

وجلست القافلة المرهقة لتستريح بعض الوقت.

ومال أحد الرجال على أذن مالك بن عوف هامسًا:

- «لقد مات دريد بن الصمة قتيلاً . . ».

- «الحرب لا تفرق بين الحكيم والمعتوه . . ».

- «كان بعيد النظر . . ».

رمقه مالك بنظرة عاتية، وقال:

- «هراء . . الهزيمة تجعلنا نفكر هذا التفكير، لو انتصرنا لبدا لنا دريد أحمق الرأى . . ».

قال الرجل:

- «كان بالإمكان أن نسوى الأمر مع محمد دون إراقة دماء . . ».

رد مالك:

- «أشرف لنا أن ننهزم، من أن نسلم دون حرب . . ».

- «كلام لا معنى له . . ».

اربد وجه مالك، وصاح:

- «أتعارضنى وتسخر منى؟؟».

- «لم نخدع أنفسنا؟؟ تلك هى الحقيقة..».

- «ماذا تقصد؟؟ أهو التقريع والتأنيب؟؟ لا تنسَ أننى لم أزل رئيس القوم وسيدكم جميعًا..».

هز الرجل رأسه قائلاً:

- «أعرف.. لكن النكبة عامة، ولنا الحق فى المشاركة بالرأى..».

- «لا مجال للرأى.. ولا شىء سوى الحرب..».

- «معنى ذلك أننا لم نتعلم من النكبة الكبرى.. وأننا نخرج من حفرة لنسقط فى حفرة أخرى..».

رفع إليه مالك وجهًا متحديًا وهتف:

- «ماذا تريد أن تقول؟؟ أفصح..».

وقف الرجل وقال بلهجة واثقة:

- «نذهب إلى محمد، ونبدى الندم، ونعتنق دينه، ونطلب منه الصفح، وإعادة السبايا..».

صرخ مالك فى ثورة:

- «انحطاط..».

- «بل غاية السمو . .» .

قهقه مالك :

- «ندم . . واستسلام . . وضراعة . . وتسميه سمواً؟؟» .

قال الرجل :

- «محمد نبي عند الله ، وكلماته أصدق برهان . . إنني حينما أفكر في دعوته وسلوكه وصموده . . أعجب ويشتد بي العجب . . لماذا تحاربه؟؟ وحينما أفكر في امتداد سلطانه ، وسيطرته على العرب . . أضحك على تصرفاتنا . . إذ كيف نهزم رجلاً هذا شأنه . . كلما قلبت الأمر وجدت أننا نتخبط . . ونفعل كما تفعل النعامة . .» .

قال مالك وهو يمسك بقبضة سيفه ، وصدره يعلو ويهبط :

- «انصرف عني . . كنت سعيداً بلا نبي . . ويمكنني الآن أن أحيا بلا نبي . .» .

قال الرجل مشيراً إلى من حوله :

- «ونحن؟؟ هؤلاء الناس . .» .

- «لو سمعوا ما تقول . . لبصقوا على وجهك . .» .

احتقن وجه الرجل ، وقال :

- «أغلبهم يفكرون فيما أفكر فيه . . ».

نادى مالك بأعلى صوته فى الجموع التى قد عسكرت فى المنطقة :

- «لقد أزمعنا مواصلة السير إلى الطائف . . هيا بنا . . ومن أراد أن يتخلف فليذهب إلى الجحيم . . ».

وتحركت القافلة جميعها صوب الطائف . . كانوا مرهقين منهزمين، ومضطربى الفكر، لا يستطيعون أن يحسموا أمرًا، وأشباح النسوة والأطفال والأموال تتراقص فى خيالاتهم المكدودة.

●●●

وشدت عاتكة الرحال إلى حيث يوجد الرسول، ترافقها أمها ومن فى خدمتها من العبيد والجوارى . . وركبت فى هودج متواضع ترافقها جاريتها . . كانت عاتكة مفتوحة العينين، يبدو فيهما التفكير والعزم، وبقيت صامتة فترة طويلة، وجاريتها مطرقة لا تفتح هى الأخرى فمها بكلمة، والعبد الذى يأخذ بمقود الجمل يلقى بعض الرجز بصوت جميل منغوم يتناهى إلى أسماعها نديًا رقراقًا . . تنهدت عاتكة، وقالت:

- «كنت أقول دائمًا إن محمدًا على حق».

- «هو ذاك يا مولاتي..».

أدركت عاتكة، أن جاريتها لا تتكلم بغير ما تهوى سيدتها، فبدا على وجهها شيء من الضيق وغمغمت:

- «أتجاملينني؟؟ أنا لا أحب ذلك..».

قالت الجارية:

- «ليس في كلامه ما يعيب..».

- «ولِمَ لم تقولي ذلك قبل الآن؟».

- «كنت أطويه في قلبي تأدبًا..».

- «هذا شيء لا يغفره الله.. أعرف أنني امتلكتك.. لكن هناك شيئًا لا يستطيع أن ينازعك فيه أحد..».

- «ما هو يا مولاتي؟؟».

- «معتقداتك..».

- «أجل..».

- «والله يحاسبك عليها.. إنها شيء في القلب..».

تجرأت الجارية، وقالت:

- «لماذا لم تسرعي بالذهاب إلى محمد منذ البداية يا سيدتي؟؟».

ابتسمت عاتكة :

- «سؤال وجيه . . أتريدين الحق؟؟» .

- «أجل . . » .

- «أنا نفسى أعجب لذلك . . كنت أعتقد أنه رسول من عند الله ، وأن ما جاء به من عند الله ، لكنى كنت متقاعسة ، هذا شيء غريب . . النكبات والأحزان علمتنى ألا أخاف أو أنافق . . إننى ألقى بكلماتى دون أن أهاب أحداً . . كيف تقاعست وترددت؟؟ ربما لأن الخروج على المألوف أمر يحتاج إلى وقت ، وإلى قدر خارق من الشجاعة . . » .

أخذت عاتكة تعبر عما يجيش فى صدرها من مشاعر تفيض بالإيمان والنور . . وتجرأت جاريتها ، وقالت وقد أشرق وجهها بالسعادة :

- «وكيف هى جنة رب محمد يا مولاتى؟ . . وهل سأكون جارية لك هناك؟» .

ضحكت عاتكة ، وقالت :

- «الجنة ليس فيها سادة وعبيد . . الجميع سادة . . لا شك أن الجزاء يتفاوت كما تتفاوت منازلنا فى التقوى والصلاح . . لكن الكل سادة . . أنت مثلاً لو نلت ثواب الجنة قد تكونين أفضل منى

عند الله، وهناك يا فتاتى لا قيمة للأحساب والأنساب، ولا أثر للغنى الفاحش، أو السلطة الدنيوية . . ومحمد يقول: «من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه . . انظرى . . أى عالم رائع يكون؟؟ الكل سادة . . وقد يكون لبعض العبيد منزلة أرفع من منزلة بعض السادة . . ».

شردت الجارية قائلة:

- «إنه حلم جميل . . ».

- «بل إنه فى قلب المؤمن حقيقة . . ».

أفاقت الجارية إلى نفسها، وقالت فى تأدب:

- «لكم يسعدنى أن أكون إلى جوارك فى الجنة . . إن وجودى بالقرب منك أمر سيسعدنى كثيراً . . ويخيل إلىّ أننى سأشعر بأسف بالغ إذا ما ابتعدت عنك فى الجنة . . ».

قالت الجارية تلك الكلمات، وعاتكة ترمقها فى احترام وود، وقالت:

- «هناك يا فتاتى لا وجود للحرمان أو الأسف . . هناك السعادة الأبدية . . والحب . . وتحقيق كل الآمال . . إنك قادرة على أن تحققى كل ما يخطر لك على بال . . وفى الجنة يا فتاتى تنعدم الأحقاد . . لن تقع عيناك على وجه كالح متوتر . . أو عيون

دامـعـة . . أو ابتـســامـات ذليـلة . . ولن تلوثهـا الدمـاء والأحــزان والخوف . . » .

أشرق وجه الجارية بالسعادة، ورفعت عينيها المخضلتين وهى تهتف :

- «وافرحتاه . . . » .

- «وفى الجنة مـا لا عين رأت، ولا أذن سمـعت، ولا خطر على قلب بشر..» .

قالت الجارية فى حماسة بالغة :

- «كلماتك هذه تجعل الدنيا فى عينى تافهة . . الأيام تمر عليلة مملة . . لكم أتشوق للقاء الله» .

- «لكن الدنيا يا فتاتى . . هى التجربة . . هى الامتحان . . إن أمامنا وما فيها من أعمال هى التى تأخذ بأيدينا إلى النعيم المقيم، لقد أوجدنا الله فى هذه الدنيا . . هكذا أراد . . فلم نتبرم بها؟؟ والمؤمن هو من يحيا حياته لله . . عندئذ . . تصبح الدنيا جسراً إلى الخلود والنعيم . . ذلك هو العدل . . » .

وران عليهما الصمت من جديد، الجارية تحلم بالجنة الموعودة، حيث يكون جميع الناس سادة، لا عبيد ولا مظالم ولا حرمان،

وعـاتكة تحلـم بلقـاء الرسـول، وبحـيـاة جـديدة، يسـودها الصـفـاء والدعة والسلام . .

●●●

ودهشت عاتكة إذ سمعت الجارية تقول :

- «ولماذا لا يؤمن مالك بن عوف؟؟ ألا يخاف عذاب الله؟؟» .

- «إنه يعانى أشد العذاب منذ الآن . . » .

وتململت عاتكة فى مكانها، واستطردت :

- «إنه مسكين» . .

قالت الجارية خافضة الرأس :

- «لماذا لـم تتـزوجـيـه يا مـولاتى . . وهو سـيـد قـومـه . . ألا تحبينه؟؟» .

- «إننى أحبه . . » .

قالت الجارية فى دهشة :

- «عجيب . . !» .

- «أجل . . لكنه حب بعـمـر الزهور . . أعـرف أن مـداه لن يطول . . الناس تقول إن مالك قد تزوج من امرأة بعد قصة حب عنيفة ومثيرة . . آه . . مالك سيد قومه . . ومالك ملول . . ولا حد

لرغباته وشهواته . . والحب يا فتاتى فى البداية دماء تغلى وتمور . . ثم بضعة كئوس . . وليالى بهيجة . . وتهدأ العواطف . . ويتحول الحب الملتهب إلى هدوء ومودة . . ومالك عدو الهدوء والملل . . إنه يعبد التوتر والتوهج والاشتعال . . وسوف تمر أيام أو شهور . . وبعدها سيلهث فى طلب الجديد . . ستبحث الفراشة عن شعلة أخرى تحوم حولها وإن احترقت بلهيبها . . وأنا امرأة مجربة . . عانيت الكثير . . أبحث عن إنسان سوى . . ناضج . . يفهمنى وأفهمه . . عندئذ يستطيع أن يحتفظ كل منا بالآخر . . » .

كانت الجارية تستمع إليها بقلب متلاحق الضربات ، كلمات سيدتها تنصب فى أذنيها ، وتتسلل إلى فكرها فتجهده وتثيره ، وتمتمت الجارية :

- «لكنك قادرة على ترويضه وامتلاكه . . ؟» .

هزت عاتكة كتفيها قائلة :

- «لا أحب أن يكون لى عبدًا . . عندما تبالغ المرأة فى الاحتفاظ بزوجها ، يكون ذلك مدعاة لمزيد من نفوره وضيقه» .

وتنهدت قائلة :

- «ومع ذلك ، من يدرى؟؟ فلنترك هذا الأمر الآن . . » .

وتوقف الجمل عن المسير . . وصاح القائد :

- «هنا ينزل محمد. . » .

أطلت من ثغر الهودج، كان الضوء يغمر المكان بهاء وروعة، وآلاف الرجال يروحون ويجيئون فى أمن وثقة ورضى. . وسرت فى جسدها رعشة قدسية، فأغمضت عينها، وشرقت. . وتمتمت والأشواق تغمر قلبها :

- «هذا يوم المنى . . هذا يوم اللقاء. . » .

•••

وكانت المفاجأة أن «عاتكة» سمعت بقدوم وفد من «هوازن» يتألف من أربعة عشر رجلاً، جاءوا نيابة عن قومهم يقدمون أسفهم، ويعرضون إسلامهم، ويطلبون من الرسول أن يرد عليهم السبى والأموال، تكرمًا منه وعطفًا، وكان الرسول يعلم أن الغنائم من حق المحاربين، بهذا جرى العرف، وكذلك كان يفعل أعداء المسلمين، حين يستولون على السبايا والأموال، فنظر الرسول إلى وفد «هوازن» وإلى جموع المسلمين، وقال لرجال هوازن :

- «إن معى من ترون، وإن أحب الحديث إلىّ أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم، أم أموالكم. . » .

فقال ممثلو هوازن :

- «ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا» .

إن عليهم أن يختاروا بين أبنائهم وأموالهم، ورأى وفد هوازن أن التضحية بالمال أمر هين، أما التضحية بالنساء والأبناء، فأمر عسير قاسٍ على النفس.

وفكر الرسول برهة ثم قال:

- «إذا صليت الغداة، فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله على المؤمنين، وبالمؤمنين على رسول الله أن يرد إلينا سبينا . . » .

فانصرفوا حتى تحين الصلاة . .

وقالت الجارية:

- «مولاتي . . إن مالك بن عوف ليس مع وفد هوازن» .

- «هو عنيد مكابر . . » .

- «وأين ذهب، وقد انفض عنه الناس؟» .

- «لم يزل بالطائف ينتظر احتشاد ثقيف ليثأر لترهاته» .

فلما صلى رسول الله الغداة، وصلى معه وفد هوازن، قاموا وفعلوا مثلما أمرهم الرسول، فابتسم الرسول، وقال:

- «أما ما كان لي، ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس» .

فقال المهاجرون:

- «ما كان لنا فهو لرسول الله» . .

لكن بنى «تميم» وبنى «فزارة»، قد رفض زعماؤهم رد نصيبهم من السبايا، إن الأمر اختيار بحت، ومن ثم رأوا أن يتمسكوا بحقوقهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المعركة قد كلفتهم عددًا من القتلى مما أثار الألم فى نفوسهم.

لكن رسول الله تقدم إليهم قائلاً:

- «إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد استأنيت بسبيهم، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا، فمن كان عنده شيء فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يتمسك بحقه فليرده عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا».

وأثارت القضية جدلاً صاخبًا بين المسلمين، وكان الرأى السائد بينهم، أن الرسول لم يأمر بالرد، ومن ثم فالأمر متروك لاختيارهم، ومع ذلك فقد نظروا إلى إسلام هوازن نظرة متعمقة، إن هؤلاء إذ أسلموا، إنما يحز فى نفوسهم أن يبقى أبناؤهم ونساؤهم سبايا، وإن الأخوة التى تجمع بين المسلم والمسلم إنما تكون مبرأة من الأحقاد، ونوازع الحقد والطمع، وهكذا استجاب المسلمون المعارضون لرأى رسول الله، وردوا السبايا إلى هوازن، فكان يوم فرح وسرور واستبشار..

●●●

وفى المساء قالت الجارية لمولاتها عاتكة :

- «لقد سأل الرسول عن مالك بن عوف، وأبدى دهشته لعدم مجيئه مع الوفد . . ووعد خيراً إن هو قدم إليه . . » .

تنهدت عاتكة فى ارتياح :

- «لا أظن أن الرسول قلق لذلك، فهو عليه الصلاة والسلام على يقين من نجاح دعوته، ولا شك أن الأسلوب الفذ الذى عامل به وفد هوازن، سوف يجعل الناس يأتون إليه تباعًا حتى يعم الإسلام بلاد العرب كلها . . كنت أرى ما يجرى وأنا فى قمة السعادة . . رأيته يحنو على الأعداء، ويؤاخى بين الأصدقاء، لا يخرج به الغضب، ولا يعنف على معترض، ابتسامته تنبع من قلبه، رفقه بهوازن أقوى من رفقه بذويه، كبير . . كبير . . تتضاءل إلى جواره كل عمالقة الزيف والعناد . . ﷺ» . .

واستلقت «عاتكة» على فراشها، وقد حط المساء على الآكام وأعتم الأفق، إلا من نجوم تتلألأ كالابتسامات النابضة فى قلب الأفق، وأخذت تستعيد كل ما مر بها من أحداث فى ذلك اليوم، وخاصة تلك اللحظات الخالدة التى لا تنسى، حينما ذهبت إلى رسول الله، لتردد الشهادتين، وتعلن إيمانها بدعوته . . كان جسدها يرتجف من شدة الانفعال، وكانت تتصبب عرقًا، ولا تريد أن تحول عينيها عن وجهه الكريم، لشد ما تمنت أن تبقى إلى

جواره، لتستمع إلى أحاديثه العامرة باليقين والإيمان والقوة، ولتشبع النظر والتطلع إلى وجهه الكريم . . وكانت تمضى وهى ذاهبة إليه، أو خارجة من لدنه، بين جموع المسلمين . . وترقب باهتمام كيف يتصرفون، وكيف يتفاهمون، احتشاد منظم عجيب، تنبثق فى جنباته أروع ما يحلم به الإنسان من فضائل وعظمة واحترام . . حتى وهم يأكلون . . ويصلون . . ويمرحون . . وتمتمت والنوم يغالبها :

- «أى فتاتى . . حينما كنت أنظر إلى عيونهم . . كان يخيل إلىّ أنها ينابيع تتدفق بالحياة والأمل . . فتخضر الصحراء، وتينع الزهور، وتصبح الدنيا . . جنة خضراء . . عذراء . . نابضة بالخلود . . ولن أترك هؤلاء القوم . . سأرحل وراءهم أينما رحلوا . . وسأستنشق تراب معاركهم كما أستنشق المسك والبخور، وعندما أتزوج من يميل إليه قلبى منهم . . فسيكون ذلك يومًا سعيدًا . . لا يفوقه فى روعته غير يوم اللقاء مع الحبيب الأكبر . . محمد . . وراحت عاتكة فى سبات عميق . . موشحًا بالرؤى الجميلة . . والأحلام الوردية .

●●●

هل سأل عنى محمد فعلاً؟؟ وهل وعد بأن يرد لى أهلى وعددًا من الإبل والمال؟؟

كان مالك بن عوف يردد ذلك فى شىء من الاعتزاز والفخر والزهو، ثم ضحك ضحكة مصطنعة لا روح فيها، ولوى شفته فى ازدراء، وهز رأسه، ثم قال:

- «يريد محمد أن يغرينى.. ها.. ها.. ها.. لن يكون ذلك، ليس بينى وبينه سوى السيف يحكم بيننا، فإذا كنت جديراً بأهلى ومالى استوليت على حقى عنوة، وإن فشلت فإن الموت فى ميدان المعركة أروع عزاء..».

وعجبت الطائف لموقف مالك وصلابته وإصراره، وسددوا إلى رئيس هوازن نظرات تقدير واحترام، لكن مالك عاد إلى مقره شارد الفكر، متوتر الأعصاب، لم يكن كل ما قاله يعبر عما أثارته الأنباء الجديدة فى عقله من خواطر، لقد شعر بارتياح بالغ عندما علم أن محمداً سأل عنه، وأبدى اهتماماً كبيراً نحوه، وأكبر موقف محمد من السبايا الذين ردهم إلى هوازن، إن مالك على الرغم مما حاق به من هزيمة، يجد لدى محمد اهتماماً بالغاً، ومحمد حريص على أن ينضوى مالك تحت لواء الحق، ذلك شىء أشبع غروره، وأرضى كبرياءه، ونظر مالك حواليه، إن الطائف حصينة، وبها عدد من الرجال الأشداء، لكنه يدرك -وهو لن يخدع نفسه ثانية- إن أغلب الناس من ثقيف، يستعدون للحرب فى غير حماسة تذكر، الكثيرون منهم يرون أن محمداً على حق، دون أن يجرءوا على

التصريح بما فى قلوبهم، ولن تكون الطائف أقوى وأمنع من خيبر التى اجتاحها محمد، ولن تكون أصمد من مكة وصناديد قريش، الحقيقة التى لا مراء فيها أن محمداً لن تحيق به الهزيمة بعد ذلك، وإن دينه بالنسبة لأديان العرب قمة تعلو كل القمم، فيه وضوح واتفاق مع منطق العقل، وقبول لدى عامة الناس، ومحمد ومن معه هم التجربة المعبرة عن نجاح هذه الدعوة.. لكن أذهب إلى محمد، وأجلس بين يديه تابعًا مستسلمًا، وأردد الشهادتين فى خضوع، وأنا سيد هوازن وفارسها وصاحب الكلمة المطاعة فى قطاع كبير من أرض العرب؟؟ إنه لشيء شاق على النفس.. آه.. لكن أشق منه أن تكون زوجتى وأهل بيتى سبايا يقاسون العار والذل والضياع.. الله واحد.. آه.. هذا حق.. لكن الناس سواسية متساوون، هذا شيء فظيع.. هذه المساواة شيء تمجه النفس وترفضه، والقانون يطبق على الغنى والفقير، والسيد والعبد.. إننى لا أستطيع أن أتقبل ذلك، إن للسادة دائمًا حقوقًا غير حقوق العامة، ومعاملة غير معاملتهم.. إنهم سادة.. هنا نقطة الضعف فى شريعة محمد.. لا أدرى كيف وافق على ذلك كبار القوم فى مكة والمدينة وغيرهما من الأماكن، أهو الرضوخ للقوة وعزة المنتصر؟؟ لا.. لقد انصاع الأوس والخزرج دون ضغط.. اختاروا بأنفسهم.. وانحنوا لإرادة الله.. لكلمات محمد.. وقالوا له: لو خضت البحر لخضناه معك.. وساروا

وراءه يتفانون فى الدفاع عن عقيدتهم . . كانوا يموتون سعداء . .
آه . . يجب أن أضع حدًا لهذا العذاب كله . .

وصفق بيديه ، فقدم أحد العبيد :

- «استمع إلىَّ جيدًا . . » .

- «أمر مولاى . . » .

- فلنستعد للرحيل» .

- «إلى أين يا مولاى»؟؟

- «لا شأن لك بذلك . . إننى آمر وعليك التنفيذ . . » .

- «سمعًا وطاعة يا سيدى . . » .

ثم قال مالك بن عوف ملوحًا بسبابته ومحذرًا :

- «لكن . . حذار أن يشعر بنا أحد . . يجب ألا تعلم الطائف أمر هذا الرحيل . . سننطلق قبيل الفجر . . تحت جنح الظلام . . سننطلق مسرعين . . دون أن يعلم من أمرنا شىء . . أتفهم؟؟» .

قال العبد :

- «أتنوى الذهاب إلى عاتكة؟؟» .

صرخ مالك فى حدة :

- «أيهـا الفـضـولي العـاق . . لا دخل لك في شيء . . انصرف . . » .

هذا الملعون قد ذكره بعاتكة ، إنه يحاول أن ينساها ، إن عاتكة قد مرغت قلبه في الذل والعذاب ، وعاتكة سخرت من آرائه ، وتجاهلت حبه ، وعاتكة شهدته وهو يفر مذعوراً ، حينما قالت الجارية : إنها رأت غباراً يسد الأفق ، لقد استطاعت عاتكة أن تسخر منه وتحطم كبرياءه وهو في عنفوان مجده وسطوته ، فكيف تخشع له الآن ، بعد أن انهارت قوته ، وذبل مجده ، وانفض الأتباع من حوله . . أيعطيها الفرصة لتظهر الشماتة والسخرية المردة من جديد . لعنة الله عليك أيها العبد الفضولي . . إنك تنكأ جراحًا لم تندمل بعد في قلبي الحزين . . ومع ذلك فإن مالك يتذكر في تلك اللحظات عينيها الواسعتين ذات الرموش الطويلة ، وسمرتها الفاتنة المشربة بالحمرة . . وقسوتها في التعبير وكلماتها التي تنغرس في قلبه كالمدى الحادة . . وتمردها على حبه وكبريائه . . يذكر كل ذلك فيخفق قلبه . . آه تلك القلعة المنيعة التي لم يستطع اقتحامها . . إن هزيمته أمامها لا تقل قسوة عن هزيمته أمام محمد . . علمته عاتكة كيف يكون الحرمان . . وهو يملك آلاف الرجال . . وآلاف السيوف . . وعلمته كيف يتحمل الظمأ القاتل والكأس بين يديه . . كانت الوحيدة التي تتحدى قوته ، وتسفه آراءه ، ولا تستسلم لأمره أبدًا . . .

كان قادرًا على سحقها لكنه لم يستطع . . وكان فى إمكانه أن يسوقها أسيرة، ويشوى جسدها بالسياط، ويسلكها فى زمرة الجوارى أو الإماء دون أن يعارضه أحد . . لكنه كان عاجزًا عجزًا من نوع غريب . . وهو يعلم أن كل شيء يمكن الاستيلاء عليه بالقوة إلا الحب . . الحب لا يؤخذ قهرًا . . بل يعطى عن طيب خاطر . . إنه حر متمرد . . لو انتزع الحب عنوة لما كان حبًا . . لن يشعر بذلك المذاق الشهى، ولا تلك الأشواق الروحية التى تعمر قلبه بالأفراح . .

●●●

- «حان الرحيل . . » .

قالها العبد فى جمود، فخفق قلب مالك، وظل صامتًا برهة، ثم انتزع نفسه من تردده وأفكاره، وقال بصوت عالٍ :

- «هيا . . » .

وانطلق متسترًا بالظلمة، يلهب جواده بالسوط، ومعه فئة قليلة من العبيد، ولم تعلم الطائف بالخبر إلا بعد أن قطع مالك مسافة كبيرة، وأصبح قريبًا من منزل محمد . . ومر مالك فى طريقه بالمكان الأخير الذى أوت إليه عاتكة . . لم يجد إلا رماد المواقد، وقدورًا مهشمة، وأوتادًا تالفة . . وبقايا حيوانات . . أغمض عينيه ومضى فى طريقه حتى بلغ محمدًا .

كان يظن أن لحظات اللقاء ستكون من أصعب اللحظات فى حياته فسترمقه مئات العيون . . سيد هوازن يأتى مبايعًا مسلمًا . . لكن مالك يعجب لنفسه ، إذ يتنزل بقلبه هدوء واطمئنان من نوع غريب لم يألفه طول حياته . . إنه يمضى مرفوع الرأس ، باسم الثغر ، يدخل على محمد ، وكأنه كان يحن لذلك اللقاء منذ أمد بعيد . . أهو السحر؟؟؟ «يا إلهى . . إننى أشعر بألفة غريبة لهؤلاء الناس ، وتخفق فى روحى سعادة كبرى ، كيف حدث ذلك؟؟» .

وخرج مالك من عند الرسول مؤمنًا . .

والتقى بأهله . . إنه يرى زوجه هذه المرة بشعور جديد . . يشعر بالشوق الجارف نحوها . . إنها تبتسم فى سعادة تنطق بها حركاتها ونظراتها وتعبيرات وجهها ، وهو يلتقى بها بنفس الأحاسيس التى كانت تروى عواطفه حينما عرفها لأول مرة ، وهام بها حبًا . . كل شىء يتغير . . ويولد من جديد . .

وفى الطريق إلى الربع القديم . . خلف جبل حنين . . كان مالك يرافق زوجه ، تحسس رأسها فى حب بالغ ، وهمست هى فى حياء :

– «لقد أسلمت عاتكة . . و . . وتزوجت . . » .

قال وقد خفق قلبه :

- «كيف عرفت؟؟؟».

- «لقد وفدت لزيارتى.. كانت أختًا صالحة بكل معنى الكلمة..» تمتم فى صدق، وقد احمر وجهه خجلاً:

- «أى حبيبتى.. أنت نعمة كبرى من نعم الله على.. ولا يتربع على عرش قلبى سواك..».

تخضلت عيناها بدموع الفرح، وتمتمت وهى تحتضن ذراعه فى حب:

- «كانت رحلة شاقة.. لكننا عدنا منها بانتصارات عظمى.. لم تنهزم يا مالك.. ولكنك انتصرت.. إنه يوم عظيم..».

وسمعا قائد الناقة وهو يغنى بصوت شجى أبياتًا للشاعر المعروف كعب بن زهير:

إن الرسول لنور يستضاء به

وصارم من سيوف الله مسلول

فى فتية من قريش قال قائلهم

ببطن مكة -لما أسلموا- زولوا

شم العرانين، أبطال، لَبُوسُهُمُ

من نسج داود فى الهيجا سرابيل

ليـــسوا مـفــاريح إن نالت رمــاحُـهُمُ

قــومًـا، وليـســوا مـجــازيعًــا إذا نـيلوا

وهمست قائلة لمالك:

- «ألم أقل لك.. إنه يوم عظيم؟؟».

تمتم في سعادة:

- «أجل»..

.. ومال عليها، والدموع عالقة في أهدابه، وهمس:

- «أتعتقدين أن أيامنا السعيدة القديمة ستعود؟..».

●●●

أحزان ملك

لم يعد للحياة معنى فى نظره، كل شىء حوله يوحى بالملل، ويبعث فى نفسه الضيق، ذلك هو «جبلة بن الأيهم ملك غسان» الذى يعرفه العرب فى شتى أنحاء الجزيرة، وينظرون إليه فى تجلة ووقار، ويتسابق إلى بابه الشعراء، لكنه اليوم غيره بالأمس فالدنيا لا تثبت على حال، والمتغيرات الضخمة -بعد مجىء الإسلام- عصفت بالجزيرة شرقها وغربها، وشمالها وجنوبها، وولدت قيم جديدة، وظهرت بطولات من نوع لم يألفه، وإلا فكيف تحدث الركبان عن «عبد» يقال له بلال، وعن شبان حديثى السن، يقودون الجيوش، ويغيرون وجه العالم. . ثم. . أين ملكه الكبير فى الشام؟

لقد انتهى كل شىء، وعمر بن الخطاب خليفة المسلمين يقتحم ممالك كسرى وقيصر، ولا تستطيع قوة أن تصمد أمامه. . إن «جبلة ابن الأيهم» يعترف بينه وبين نفسه بأن صورة البطولة الإسلامية فى

الجزيرة العربية تلهب خياله، وتنال إعجابه وتستحوذ على فكره . . وإن حياته هنا فى كنف الروم حياة ذليلة . . ميتة برغم ما ينعم فيه من مال وخدم ونفوذ . . أصبح جبلة يؤمن بأنه يكاد يختنق فى البيئة الرومية المرفهة الباردة . . ليس فيها ما يشعل أشواقه، ويؤجج طموحه، ودخلت امرأته عليه، وقد مضى الليل إلا أقله :

- «أراك تعانى من آلام مكظومة» . . ؟

تنهد فى حسرة، وقال :

- «لقد سئمت هذا الجو» .

- «أرى أنه لا ينقصك شيء يا جبلة بن الأيهم . . » .

قهقه فى سخرية، وأردف :

- «هناك أشواق لروحى لا تعرفينها» .

- «ما هى» . . ؟

التفت إليها، وقال وقد بدا الاهتمام على ملامحه :

- «ألا تعتقدين أن الإسلام حق»؟

- «أوه يا جبلة . . أليس لهذا التفكير المؤرق من نهاية»؟

- «إنه لا ينتهى ما دام فىّ عرق ينبض . . » .

- «أنتِ تعذب نفسك . . » .

- «كيف . . »؟

- «تستطيع أن تختار ما تؤمن به . . أنت حر . . » .

صرخ فى حدة قائلاً :

- «آه . . هنا مربط الفرس . . أن أختار . . تلك هى القضية المضنية ، وأنا حر نعم لكن هناك قيوداً خفية تشل حركتى . . قيوداً لا يراها أحد غيرى . . لقد اعتنقت النصرانية . . لكنها لم تملأ قلبى . . » ثم أمسك بذراع زوجته ، وهزها فى عنف ، وقال :

- «ويا للعار إذا خليت عن دينى القديم ! . . ماذا سيقول الناس عنى . . أعرف ما سيقولون . . نعم . . «جبلة» كان على خطأ . . جبلة يلعب بالعقائد كما يلعب بالجوارى الحسان . . أو جبلة يعود ذليلاً مستسلماً لسطوة عمر . . » .

همست زوجته فى ضيق :

- «افعل ما يحلو لك . . » .

- «كل شىء مر المذاق فى حلقى . . » .

ولم تسفر المناقشة عن شىء حاسم ، جبلة يريد أن يهرب من واقعه الأليم ، يتمنى أن يكف عقله عن التفكير ، ويسحب ستاراً من النسيان على كل ما ينغص عليه حياته المرفهة ، فدعا المغنيات والعازفات ، والراقصات إلى ليلة حمراء ، يريد أن يشرب ويمرح

ويغرق همومه فى الطرب والكئوس، وفى المساء الحافل احتشدت طائفة الطرب والندماء، وهتف فى فرح مصطنع:

- «يا جارية . . غنى لى . . ترنمى بقصائد حسان بن ثابت التى كان يمدحنى بها قبل أن يعتنق الإسلام . . ».

النغم الشجى يلعب بالقلوب، ويثير الذكريات الحلوة، ولحن القيثار يختلط بالصوت الحنون، والنشوة التى تبعثها الخمر، فيترنح الجالسون، وتهتز الرءوس إعجابًا وتنطق صيحات الانبهار . .

وصرخ «جبلة بن الأيهم» صرخة اهتزت لها جنبات القاعة الكبرى، المفروشة بالبسط الأعجمية والتى تتدلى فيها القناديل المذهبة، وقال:

- «اذهبوا عنى جميعًا . . لا أريد أن أرى أحدًا أمامى».

وسيطر الصمت والشجن، ومالت زوجه وقالت فى توجس:

- «ماذا جرى لك؟؟».

قال والدموع تكاد تفر من عينيه:

- «ليس هذا هو الدواء الشافى . . ».

- «ما هو الدواء إذًا؟؟».

- «سأذهب إلى عمر فى المدينة . . ».

- «يا إلهى! كيف؟ لقد تصديت للإسلام وحاربته فى عنف.. ألا تعتقد أنهم قد يقتلونك؟».

تنهد فى ارتياح، وقال:

- «إنهم لا يردون ولا يغدرون بمسلم..».

- «أتعتنق الإسلام يا جبلة؟؟».

- «إن كبريائى تثور يا زوجتى.. ولكن لا بد من مواجهة الحقيقة.. إن الهروب من مواجهتها سيقتلنى.. أنا أعانى من أحزان مروعة..».

***

ودخل الملك الغسانى مدينة النبى عليه الصلاة والسلام فى ركب جليل مهيب، وعلى رأسه التاج يتلألأ فيه الدر والياقوت، ومن حوله خمسمائة فارس من فرسانه يرتدون أفخر الثياب التى تخطف الأبصار لما يتحلون به من ذهب وفضة، وخرجت المدينة عن بكرة أبيها أطفالاً ونساء، ورجالاً يشهدون الموكب الفريد، وينعمون النظر بمشهد الملك العظيم وفرسانه الذين يرتدون الخز والديباج، وكان جبلة حريصًا أشد الحرص على هيبته وكبريائه، ليؤكد للجميع أنه ما جاء كرهًا ولا دخل مهزومًا، وإنما أتى ليعتنق الإسلام بمحض إرادته.

وبعد أن أسلم دعاه عمر بن الخطاب لأداء فريضة الحج، وبينما كان يطوف بالبيت العتيق وطأ أعرابى إزاره فحله، ولم يملك جبلة من شدة الغضب إلا أن لطم الأعرابى لطمة هشمت أنفه . . ومضى فى طريقه كأن لم يحدث شىء . . فذهب الأعرابى ورفع ظلامة إلى عمر بن الخطاب فدعا إليه جبلة على الفور :

- «أى جبلة بن الأيهم . . كلنا أمام الشريعة سواء . . لا فرق بين ملك وسوقة . . أى جبلة إما أن تسترضى الأعرابى فيعفو عنك . . وإما أن تدعه يلطمك كما لطمته . . » .

وبحركة لا شعورية وضع جبلة يده على وجهه، وهتف :

- «أيلطمنى؟ مستحيل!» .

- «ذلك هو العدل . . » .

- «وماذا يقول الناس عنى . . أأعرابى يلطم جبلة؟؟» .

- «ومن تكون يا جبلة؟؟» .

- «ملك الشام يا عمر . . » .

- «لكنك عبد من عبيد الله . . ولا تستطيع أن تتميز عن أحد من المسلمين إلا بالطاعة . . » .

- «معنى ذلك أنكم تلجئوننى إلى الارتداد عن الدين . . » .

- «المهم أن يمضى أمر الله . . وأمامك فسحة من الوقت إما أن تسترضيه وإما أن يقتص منك، وذهب جبلة إلى رجاله مكروبًا ومهمومًا، يكاد يجن جنونًا، كان يجلد الرجال بالسياط، ويسوقهم إلى السجن، ويشير بإصبعه فتقطع رقبة المناوئ، ويصدر أمره . . فتتحرك الجيوش ويمضى إلى ملك الروم فتنحنى له الهامات احترامًا وتوقيراً . . واليوم يأتى أعرابى حقير ليلطمه؟ . . يا للعار الذى لا ينمحى أبد الدهر!

وقال رجل من خاصته :

- كيف يجرؤ عمر على قولها؟

هز جبلة رأسه ورد قائلاً :

- «لقد عرفتم . . هنا المبادئ فوق الرجال . . » .

- «وما قيمة المبادئ بدون الرجال العظماء . . ؟» .

- «المبادئ هى التى تمنح الرجال صفة العظمة . . والآن فهمت لماذا سار خلف محمد مئات الألوف من البشر . . جيش عرمرم من السادة . . لا فرق فيه بين عمر وبلال» .

قال الرجل :

- «أفهم من ذلك أنك وافقت على القصاص إذا امتنع الأعرابى عن التجمل بالعفو عنك؟؟» .

احتقن وجه جبلة وقال بصوت أجش يرعشه الانفعال :

- «مستحيل . . »!

وابتلع ريقه واستطرد فى حسرة :

- «ليس هذا العصر عصرى ، وليس هذا المكان مكانى» .

وجبلة بن الأيهم الغسانى ، لا يحلو له المقام بين قوم يساوون بين العبيد والسادة والسوقة والملوك . . إننى أفضل البقاء فى سجن الروم ، على أن يقال : لطم أعرابى فقير جبلة بن الأيهم . . الموت ولا هذا . .

وأفاق جبلة من هواجسه وهمومه ، وهب واقفًا ممسكًا بسيفه . . والتاج يتلألأ فوق جبينه ، وقال :

- «أعدوا العدة للرحيل . . سوف أتسلل تحت جناح الظلام قبل أن يفضحنا الصبح . . وسيبقى عدد منكم هنا للتمويه ، ولكى يلحقوا بنا بعد برهة وجيزة . . وسنتخذ الطريق نفسه الذى جئنا منه ، وتخففوا من أحمالكم التى لا قيمة لها . . وإذا حدث ولحقوا بنا فلا تسلموا أنفسكم إلا جثثًا هامدة . . الموت ولا العار . . !» .

وأخذ يجفف عرقه ، ويقول :

- «فى الشمال سوف تحلو لنا برودة الجو ، ونعود للأرض الخضراء ولحياة الكبرياء والنعيم والطرب . . هناك سيعرف الحكام

من هو جبلة بن الأيهم . . وشرعنا هناك يعرف للملوك قدرهم، لقد عشت طوال حياتى فوق التشريع . . كنت مصدره دائمًا . . ولن أرضى ما حييت أن يكون شىء فوق رأسى سوى التاج . . حتى تسقط هذه الرأس عندما يحين القضاء . . ».

وعاد الركب الهارب إلى نقطة البداية . .

قالت زوجه فى أسى :

- «ليتك لم تذهب» .

- «لست نادمًا يا امرأة» . .

- «لقد عادت الهموم والآلام تثقل قلبك . . » .

- «ليكن . . فقد رأيت دنيا جديدة . . » .

- «أتراحها أكثر من أفراحها . . ؟» .

ضحك فى بلاهة، وقال :

- «لكنهم سعداء بما هم فيه . . هم آلاف مؤلفة . . وكل واحد يعيش بروح ملك . . ومع ذلك فإن رأيى الذى لا أستطيع أن أتزحزح عنه هو أن جبلة الملك . . شىء آخر غير بقية الناس . . » .

وأخذ يقهقه ويدق رأسه بقبضته :

- «تصوري.. عمر بن الخطاب نفسه الذي دانت له هذه الدنيا لا يبدو عليه سوى أنه مجرد واحد منهم.. أية إرادة تلك التي صنعت تواضع ذلك الرجل؟ دعي هذا الأمر فيبقى يعذبني إلى الأبد.. وادعي لنا الجواري الحسان أريد أن أسمع العزف والغناء.. وأشرب.. أشرب كثيراً حتى تنزاح همومي».. ومال عليها هامساً، والدموع عالقة في أهدابه، وهمس:

- «أتعتقدين أن أيامنا السعيدة القديمة ستعود؟..».

●●●

عذراء المدائن

المدائن تتألق تحت أشعة الشمس كجوهرة ثمينة، والقصور الفخمة ذات الطراز الفارسى تبدو شامخة راسخة، والبساتين الخضراء المتناثرة ترسم أجمل مشهد نسقته يد الخالق، والجنود يروحون ويجيئون فى أرديتهم الملونة الفاخرة، والسيوف تعكس بريقًا أخاذًا، والجياد تصهل فى الطرقات، فتملأ القلوب بالثقة والأمل فى النصر الأكيد.

وفى شرفة أحد القصور الكبيرة، وقف أحد القواد العظام مرتديًا كامل ثيابه العسكرية، وأسند ذراعه على حافة الشرفة ثم ملأ رئتيه بالهواء النقى المفعم بالروائح الذكية، وتمتم:

- «إنها مهنة سخيفة.. أتت فى وقت غير مناسب..».

ولم يكد ينطق بالكلمة الأخيرة حتى شعر بيدين بضتين تغطيان عينيه، وابتسم وهو يحاول أن يمسك بمن أتت خلفه، لكنها عاجلته قائلة:

- «أتحدث نفسك يا سهراب؟؟» .

وأخذا يضحكان بعد أن أرخت يديها، ثم قالت بعد فترة صمت :

- «ألم يكن من الممكن أن تتخلف عن الجيش؟؟» .

فتنهد في ضيق، وقال :

- «إنها الحرب يا فل شاه» .

- «لكنى أخاف ألا تعود . . ومن ثم لا ننعم بالزواج . . » .

بدا على وجهه الغضب، وقال في حنق :

- «ما هذا التصور الغريب؟؟ أتعتقدين أن هؤلاء الحفاة العراة يستطيعون هزيمة جيوش كسرى؟ إن هزيمة طلائعنا على الحدود ليس لها سوى تفسير واحد، وهو الاستهتار . . لم نكن نتخيل أن يستطيع المسلمون اقتحام الحدود، فهم مجموعة من رعاة الأغنام والإبل . . » .

ثم أشار بيده صوب القصور المتزاحمة والحدائق المتناثرة، وقال بصوت أجش :

- «هذا العمران الذى صنعناه بأيدينا خالد لا يزول . . وما هى إلا جولة صغيرة نعود بعدها، وأمامنا تسير مواكب الأسرى والعبيد من المسلمين . . أنت تعرفين من نحن يا فل شاه» .

لقد جاء يودعها قبل رحيله إلى المعركة الفاصلة، وأفهمها أن عدد الفرس يربو على مائة وخمسين ألف جندى، وأن هذا الحشد الهائل قادر على أن يغزو العالم كله، وأن الأعداء مثلهم كمثل قزم يحاول أن يتصدى لعملاق أسطورى هامته فى السماء، لكنها قاطعته قائلة:

- «سمعت أنهم لا يرهبون الموت؛ لأن الموت فى سبيل عقيدتهم هدف فى حد ذاته، وأنهم بذلك ينالون الجنة..».

عاد يقهقه، ثم أردف:

- «القوة هى كل شىء.. وأنا لا أدين إلا بمبدأ القوة.. والجنة هى ما ترين.. انظرى إن بلادنا جنات رائعة جميلة.. تفيض بالمتعة والنعيم.. هذا هو الخلود ولا شىء غيره..».

وعلى الرغم من مظاهر الثقة والشجاعة إلا أنه كان يشعر بغير قليل من التوتر والقلق، ولهذا طلب بضع كئوس من الخمر، وأخذ يجرعها واحدًا تلو الآخر، وحينما سمع نفير الجيش ودعها وانصرف، واعدًا إياها بأن يعود خلال أيام قليلة كى يتم الزفاف، وتقام الأفراح، وتدق الطبول احتفالاً بالنصر والزواج.

كانت المعركة ضارية رهيبة، واستمر الصراع العنيف أيامًا قاسية لا تهدأ، فالمسلمون يتسابقون إلى الموت وكأنهم بذلك يحققون

أغلى أمنيـة، والفرس يأنفـون من التـراجع أو التـقـهـقـر، وصـاح «حـذيفة بن اليـمان» قائد جيوش المسلمين، بعد استشهاد القائد الأول «النعمان بن مقرن»:

- «أيها الرجـال.. يا أبطال بدر وأحـد والخندق وتبـوك.. إن النصر من الصبر.. ولننتصرن على عدونا بطاعتنا لله».

وغـربت الشـمس، وتراجع الرجـال هنا وهناك، واحـتـشـد المسلمون للصلاة وتردد نداء «الله أكبر» فى الآفاق الشاسعة، وأخذ المسلمون يضمدون جراحهم، ويوارون شهداءهم التراب، وفى ضوء القمر جلسوا يتحدثون عن ذكريات اليوم، وقصص البطولة والفداء وجلس «حذيفة بن اليمان» فى خيمته يتشاور مع أعوانه من القادة، كان حاسمًا واضحًا لا يعرف التردد أو الخوف، وأخذ يرسم على التراب خطوطًا مختلفة بسن رمحه، ويشرح كيف ستدور المعركة القادمة، ويسمى قادة الميسرة والميمنة، ويضع التوقيت المناسب للكر والفر، وبينما هم منهمكون فى تدارسهم إذ دخل أحد الجنود يجر وراءه جنديًا من جيش «المدائن» دخل المعسكر متسللاً.. كان الجندى يرتجف من الخوف، وتند عنه أصوات تنبئ عن الانهيار الشديد، وكان «حذيفة» ذا فراسة وذكاء بالغين، ومن ثم التفت إلى أحد رجاله، وقال:

- «أخبروا هذا الجندى أننا لا نقتل الأسرى ولا نكرههم على

شىء»، ولما فهم الرجل ما يقوله «حذيفة» أخذ ينظر بعينين يبدو فيهما الشك، وعاد حذيفة يقول:

- «أعطوه ماء وطعامًا. .».

وبعد اطمئنان الأسير، ابتسم حذيفة وقال:

- «جئت تتجسس علينا ويلك! نحن لا نملك إلا العقيدة التى فى قلوبنا، والسيوف التى فى أيدينا. . ولا نطمع فى أرضكم أو مالكم».

قال الأسير متلعثمًا:

- «هذا كلام غريب. . فلماذا جئتم إذن؟؟».

- «جئنا نخرجكم من عبادة العباد. . إلى عبادة الله. .».

- «الحرب لا تقوم لشىء كهذا. .».

ابتسم حذيفة، وقال:

- «نحن نسميها جهادًا فى سبيل الله. .».

- «وما الذى تفيدونه من ذلك؟».

- «سعادة البشر. . ورضاء الله. .».

هز الأسير رأسه، وأخذ يجول بنظراته بين القائد ورجاله، ثم قال:

- «لكنكم فقراء . . فكيف تعملون لسعادة الآخرين وأنتم لا تعرفونها؟؟».

عاد حذيفة إلى الابتسام . . ثم أشار بإبهام يده اليمنى إلى صدره قائلاً :

- «السعادة هنا . . وليست فى القصور والجواهر والمال والسيطرة».

- تساءل الأسير إسفنديار :

- «وماذا ستفعلون إذا انتصرتم؟».

- «نعرض دعوتنا . .».

- «ثم ماذا؟؟».

- «ونرفع الظلم عن المظلومين . .».

- «ثم . . .».

- «هذا كل ما فى الأمر . .».

- «أترغموننا على اتباع دينكم؟؟».

لوح حذيفة بسبابته قائلاً :

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. . ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. . لقد أردنا أن نفتح الطريق أمام العقول السجينة لتفكر وترى . . وتختار، نريد عالمًا من الأحرار . .».

وطال الجدل، وكم كانت دهشة الجندى الأسير، وهو يرى عالمًا غريبًا غاية الغرابة، السادة والعبيد فى صف واحد، والقادة والجنود إخوة، والبساطة والثقة والمحبة تغمر الكلمات والتصرفات، لا نفاق ولا خوف ولا غطرسة، أهو فى حلم؟؟ إن الفرق شاسع بين ما يراه فى «المدائن» وقصورها ومجتمعاتها ودواوينها، وبين ما يراه اليوم على هذه الرقعة الرائقة من الأرض، إنه فى خيمة القائد «حذيفة» لا يرى الكئوس والموائد العامرة بأطايب الطعام، ولا رقص ولا غناء، كل شىء يمضى هادئًا متسقًا دون تعقيد، وأفاق الأسير من أفكاره المصطحبة على صوت حذيفة:

- «والآن هل عرفت منا ما تريد؟؟ تستطيع أن تذهب إلى المدائن ولتخبرهم عنا بما تشاء».

قال الأسير فى دهشة:

- «أتطلقون سراحى؟؟».

- «ونوصلك إليهم سالمًا إلا إذا أبيت..».

- «بل أوثر أن أبقى هنا..».

وعادت المعركة فى اليوم التالى إلى الاشتعال، وأخذت كتائب الإيمان تخترق صفوف الأكاسرة، لقد سقطت كل الموازين المادية، العدد والعدة والقوة والمملكة الشاسعة، لا شىء يقف أمام الزحف

الإلهى الهادر . . أشياء كثيرة فى هذه الحياة لا يمكن تفسيرها على الوجه الصحيح إلا إذا تذكرنا قدرة الله . . وهرب قادة المدائن وأمراؤها تاركين وراءهم الغنائم والأسلاب . . والأموال التى حرصوا دائمًا على اصطحابها فى الميدان ، فيها فخرهم وعجبهم ، ومنها يستمدون قوتهم وسيطرتهم على أتباعهم . . وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لجيوش المدائن .

وفى يوم مشهود من أيام التاريخ خرج أهل «المدائن» يستقبلون واليهم الجديد الذى اختاره لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . وأطلت النسوة من النوافذ والأبواب ، وتراص الرجال والأطفال على جانبى الطريق . . لقد ألف أهل المدائن المواكب الرسمية الفخمة ، حيث مظاهر الأبهة والعظمة . . ولا شك أن موكب النصر الذى أعده المسلمون لقائدهم المظفر سوف يفوق الوصف والخيال . . وأخيرًا جاءت اللحظة الحاسمة ، وظهر موكب الوالى . . يا عجبًا . . لقد أبصروا رجلاً يركب حمارًا . . وتدلت ساقا الرجل على جانبى حماره . . وساد الصمت والذهول . . وهمس رجل فى أذن جاره :

- «أين التاج والصولجان؟» .

- «وأين الحراس والحجاب؟؟» .

- «لا تضيع الوقت سدى . . هيا لنهتف للحاكم الجديد . . ولنقرب منه . . ولنرفع عقيرتنا بالهتاف لعلنا نصبح من المقربين . . » .

وتعالت الهتافات وساد الهرج والمرج ، وعندما أشار الوالى الجديد «حذيفة بن اليمان» بيده ساد الصمت مرة أخرى ، ثم نادى بأعلى صوته قائلاً :

- «إياكم ومواقف الفتن؟؟» .

رد عليه رجل :

- «وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟» .

استطرد حذيفة حديثه قائلاً :

- «أبواب الأمراء . . يدخل أحدكم على الوالى أو الأمير ، فيصدقه بالكذب ، ويمتدحه بما ليس فيه» .

وسكت الناس . .

إن تحولاً خطيراً يحدث . .

هرول القائد الفارسى إلى قصر حبيبته ، فوجدها شاحبة شاردة ، قال وهو فى لهفة عجلى :

- «هيا بنا يا فل شاه» .

قالت :

- «إلى أين يا سهراب؟» .

- «نفر من وجوه الغزاة، ونبحث عن أرض جديدة، نعيش مثلما كنا نعيش . . » .

وجاءته كلماتها حاسمة محددة :

- «لن أغادر المدائن» .

- «لقد أعددت العدة للهرب . . أم تريدين أن تكونى واحدة من السبايا؟» .

- هزت كتفيها فى غير اكتراث قائلة :

- «لا يهم . . » .

- «لا أفهمك . . » .

- «لقد مللت حياتى القديمة . . إن أحداثًا جليلة تمور فى داخلى . . » .

- «لا تضيعى الفرصة . . » .

- «لن أضيعها، ولهذا سأبقى . . إن كلمات المسلمين قد غزت عقلى وقلبى وسيطرت على مشاعرى . . » .

وقال هو يمسك بيدها متوسلاً :

- «وحبنا الكبير؟؟».

قالت وهي تجول بنظراتها في الآفاق الرحبة الممتدة إلى بعيد:

- «هناك ما هو أكبر منه..».

- «ماذا؟؟».

- «حب الله..».

- «حب الله أم حب واحد من أبطال المسلمين؟؟ أنا أعرف أنهم أتوا إلى هنا..».

لكنها صرخت فيه:

- «اخرج.. وإلا استنجدت برجال «حذيفة بن اليمان»..».

وضع خنجره الذي كان قد استله في الغمد، ثم أخذ يتراجع.. ويتراجع.. حتى اجتاز عتبة الباب.. وسرعان ما أغفلته وراءه وهي تنتهد قائلة:

- «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..».

وأشرق على «المدائن» يوم جديد.

●●●

مصرع طاغية

قهقه أبو جهل، وانفرجت أساريره فى فرحة شيطانية غامرة، ثم رفع هامته فى كبرياء، ثم اكتسى وجهه بمسحة من الغضب المكبوت، وتمتم:

- «لقد أفلت منا محمد يوم أن هاجر، وكان هذا الأمر نكبة كبرى بالنسبة لنا.. ترى لماذا لم نحسم المعركة منذ البداية، ونقضى على ذلك الدين وصاحبه؟؟ ومع ذلك فإن المسلمين بتصرفهم الأخير قد أتاحوا لنا فرصة نادرة للقضاء عليهم.. هذا اللقاء فى بدر هو يوم المنى، ولن تغيب شمس هذا اليوم قبل أن يدفن الأمل الكبير فى قلوب المسلمين، ثم نهيل عليهم التراب..».

ثم اتجه ببصره صوب الخيام المضروبة عند ماء بدر وصاح بأعلى صوته:

- «يا رهط مكة.. اليوم يومكم، فما هى إلا جولة أو جولتان.. ثم ننحر الإبل، وندق الطبول، ونتساقى كئوس الخمر، وتترنم النسوة بأناشيد النصر والمجد والفخار..».

وتجمهر حوله رجالات مكة بسيوفهم وحماستهم الفائرة، الجميع يلوحون بأسلحتهم عاليًا، ودخل عليهم رجل تقدمت به السن، وقال بصوت راعش واهن:

- أيها الرجال تعلمون أن القافلة القادمة من الشام قد نجت من رباط محمد ورجاله، وليس لنا بعد ذلك من هدف.. فلماذا الحرب؟؟ ألسفك الدماء، والاستسلام للحقد والكراهية؟؟

صاح أبو جهل فى ثورة:

- «ليس الهدف هو إنقاذ قافلة التجارة يا رجل، إننا نريد أن نسحق تلك الدعوة الجديدة، ونقضى على كل تطاول ينال من كبريائنا وسلطاننا ودين آبائنا..».

ثم التفت إلى من حوله من الشباب وهتف بهم:

- «أتوافقون على تلك النصيحة المشبوهة..».

فصاحوا قائلين:

- «الموت لمحمد وصحبه.. النصر لنا..».

وعاد أبو جهل إلى سخريته وهدر قائلاً:

- «فليأتِ إله محمد ليخلصه من بين أيدينا..»

وتضاحك الشباب بينما قال الشيخ العجوز:

- «أنتم لا تعرفون الحقيقة . . هذا هو رأيى . . بل ورأى أبى سفيان أيضًا . .» .

اقترب أبو جهل منه ، وأمسك بكتفه ، وهزه فى جفوة وهو يقول :

- «إذا تكلم السيف ، فلينصرف الحكماء إلى صوامعهم» . . وفى هذه الأثناء كان محمد رسول الله ﷺ ، يتنحى جانبًا ، ويرفع يديه إلى السماء ضارعًا ، ويطلب منه العون والنصر ، فالأعداء كثيرون والمسلمون قلة ، وأسلحة الكفر تملأ السهل والجبل ، وأخذ الرسول يردد دعواته فى صدق وإلحاح :

- «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض» ، ويلتف حوله المهاجرون الأوائل ، والأنصار من أهل المدينة ، ويبايعونه على الجهاد حتى النصر أو الشهادة ، ويبدون استعدادهم لأن يفدوا عقيدتهم بالنفس والمال والولد ، وأن يخوضوا وراء نبيهم البحار ، ويشقوا القفار ، ويتكبدوا المشاق من أجل نصرة عقيدتهم ، تلك العقيدة التى تشربتها أرواحهم وقلوبهم وعقولهم ، فأصبحت عاطفة وفكرًا وسلوكًا ، وخلقتهم خلقًا جديدًا ، إنهم يأملون فى ابتعاث عالم جديد ، مشرق بالحب والخير والعدل ، تتألق فيه المعانى الخالدة ، وترد للإنسان كرامته ، وتحفظ له حريته وشرفه ، وقال صحابى جليل :

- «أيها المسلمون . . انظروا إلى الأعداء . . ماذا ترون؟» .

- ويرد عليه آخر :

- «يا عجبًا . . إنهم قلة فى أعيننا . . إن قلبى يمتلئ بفرح غامر . . أشعر أنهم لا شيء . . وأن ملائكة الله تحرسنا . . بل وتحمل السلاح لتحارب معنا . . » .

ويبتسم الرسول ﷺ ، ويشرق وجهه بالنور ويبشرهم بالنصر ، متى أخلصوا النية لله ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فيسرى الأمل واليقين من قلب القائد إلى قلوب الجنود ، ويمتلئ الأفق بأناشيد قدسية ، تدركها الأرواح وتدق طبول الحرب ، وتتصاعد صيحات «الله أكبر . . الله أكبر» ، وتلتحم الصفوف ، وتتلاقى السيوف ، وتنطلق السهام ، وتختلط صيحات الحرب ، بأنات الجرحى ، وحمى الوطيس ، ومن جديد تتعالى صيحات الكتيبة المؤمنة :

- «الله أكبر . . الله أكبر» .

ويهتف أبو جهل ، وقد أرهقه الصراع :

- «هذا النداء يزلزل كيانى ، ويثير الغضب فى نفسى» ، ويصرخ بأعلى صوته ليرد على شعار المسلمين :

- «أعل هبل . . أعل هبل» .

وينتظر أن يردد رجاله الصيحة، فيسمعها تخرج من بين شفاههم خابية واهنة، كأنها أنات محتضر، فيشتد به الغيظ والكمد، وينظر أبو جهل حوله، فيرى صناديد قريش يتساقطون صرعى والدماء القانية تخضب وجه الرمال العطشى، فيستبد به الخوف الممزوج بالحقد، فيضرب ضربات عشواء، لا تغنى ولا تسمن من جوع، ويرى أبو جهل أن صفوفه قد تمزقت، ورجاله يتراجعون، إنها الكارثة التى لم يكن يتوقعها. . ما معنى ذلك؟؟ هل يفلت محمد وصحبه هذه المرة أيضًا؟؟ لكن لماذا يفكر الآن فى محمد وصحبه، فليفكر فى نفسه. . لماذا لا يهرب بجلده، إن حياته أثمن وأهم وأعظم من مكة ومجدها ودينها وآلهتها، وهل يبقى حتى يقتله المسلمون ويروون أرض بدر بدمه؟؟ إنه لعار ما بعده عار!!

لكن ماذا يقول الناس عنه لو فر من المعركة؟؟ وماذا يكون موقفه لو وقع أسيرًا فى أيدى محمد ورجاله؟؟ أيرضى لنفسه أن يقف ذليلاً مطأطئ الرأس، وعيون المسلمين ترشقه من كل جانب، ومحمد. . محمد يرمقه بنظراته الصافية الباسمة دائمًا. . هذا هو خزى الأبد، وتلفت أبو جهل حوله، فوجد رجاله يواصلون الفرار والمسلمون يلاحقونهم بالقتل والأسر، وهم يهتفون «الله أكبر. . الله أكبر» وجمد أبو جهل فى مكانه، حاول أن يتحرك فلم

يستطع . . أصبح كالأشل . . «ترى هل أصابنى سحر محمد؟» وسمع جريحًا إلى جواره يقول:

- «شربة ماء . . شربة ماء . . إننى أموت . . » .

واقترب منه أبو جهل وهتف:

- «مَنْ؟؟» .

- «لك الحق فى ألا تعرفنى . . هذا يوم الهول الأكبر . . عليك اللعنة . . أنت الذى قدتنا إلى حتفنا . . ما الذى فعله بنا محمد . . رجل أراد أن يقول لنا كلامًا فصددناه . . وأراد حقوق رجاله وأموالهم فحاربناه . . الدنيا ليست لنا وحدنا . . فلماذا نريد أن نملى على الخلائق ما نريد ظلمًا وطيغانًا . . » .

ولم يتمالك أبو جهل نفسه من الغضب، فاستل خنجره، وأغمده فى صدر الجريح، فقضى عليه . .

وجاء صبيان صغيران هما ولدا عفراء، واقتربا من أحد المقاتلين المسلمين، وقالا له:

- «بالله يا عم دلنا على أبى جهل» .

- «لماذا؟؟» .

- «نريد أن نجهز عليه» .

وابتسم الصحابى المسلم وهو يشير نحو الطاغية . .

وما هى إلا دقائق حتى كان أبو جهل يرقد على الرمال الصفراء مخضبًا بدمائه، واستسلم للرقاد وهنًا، وعجزًا، وأغمض عينيه فى استسلام. . ودارت فى رأسه خيالات لحياة طويلة ممتلئة بالصراع والعنت. . قصة الرجل الذى بعثه الله بدين جديد يبشر بالحب والصفاء والرحمة والتسامح. . الكلمات التى جاءت قرآنًا يوحى. . سنوات الصبر والبلاء التى تحملها نبى الله. . ثم الشراسة التى قابله بها أبو جهل وأساطين الطغيان والفساد فى مكة. . القصة توشك أن تنتهى. . هنا فى هذا المكان البعيد المهجور يرقد أبو جهل رمز كل عناد وحقد وشرك. . قصة كل زمان ومكان. . الأرض تدور من حوله. . يغيب عن الوعى ثم يفيق. . الزمان لا يعود إلى الوراء، ولا حيلة فيما جرى، أى شيطان قد سد منافذ قلبه وعقله. . أهذه هى النهاية. . وشعر أبو جهل بشىء ثقيل يضغط على صدره، فتح عينيه، إنه يرى رجلاً يعرفه تمام المعرفة من أتباع محمد، وقال أبو جهل فى صوت واهن:

- «لمن النصر اليوم؟؟».

وجاءه صوت الإنسان الجديد المؤمن:

- «لله الواحد القهار يا أبا جهل. .».

وارتم رأسه جانبًا، وأغلق عينيه إلى الأبد وسقط الطاغية. . وسقط معه العناد والشرك. . وانتصرت إرادة الله. .

رجال الله

ألقت «فاطمة بنت الوليد» بنظرها خارج الخباء، وأطالت النظر فيما حولها مفتونة بروعة المناظر، وجمال الطبيعة وجلالها.. إن بلاد الشام رائعة حقًا، حتى لكأنها قطعة من الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين، وملأت فاطمة رئتيها بالهواء الرطب العليل، ثم عادت أدراجها إلى حيث كانت تجلس من قبل لتواصل إنضاج الطعام الموضوع في قدر فوق النار، وهي تغمغم بأرجوزة عربية مشهورة، تروي عن الجهاد الأكبر وانتصار جيوش المسلمين بقيادة أخيها خالد على جيوش الرومان.

ولم تكد فاطمة تنتهي من أرجوزتها حتى أحست بدبيب خطوات عجلى تدلف إلى الخباء، وقبل أن تدير وجهها لترى من الداخل تناهى إلى سمعها صوت إحدى صويحباتها، وهي تقول:

- «أبشري يا ابنة الوليد.. إنه ليوم عظيم حقًا».

فقالت فاطمة في لهفة:

- «ماذا تعنين يا أختاه»؟

فأجابت :

- «أوه يا فاطمة، إنى لا أعنى غير شىء واحد، وهل يفكر نساؤنا ورجالنا فى غير الحرب»؟

فتركت فاطمة القدر والنار المشتعلة تحته وتوجهت بكليتها إلى صديقتها وقد غمر البشر قسمات وجهها وبرقت السعادة فى عينيها، وهى تقول:

- أعلم ذلك.

- واعلمى أيضًا أن جيوشنا قد تخطت أسوار دمشق ففتحت المدينة وأبوابها لموكب الحرية والنور والإيمان . .

فطغت على فاطمة موجة غريبة من الفرح، وهتفت:

- أحق ما تقولين؟

- ليس هنالك ظلال من شك فيما أرويه يا فاطمة، وبعد لحظات قصار سوف تسمعين تكبيرات النصر وهى تملأ الآفاق إيذانًا بالنصر الجديد.

فأقبلت فاطمة على صديقتها تقبلها وتشكرها على هذه البشرى العظيمة التى طال ترقبها لها، وقالت :

- أعذريني يا أختاه، إنه لنبأ كبير حقًا، لقد طال حصارنا لهذه المدينة الحصينة حتى كاد اليأس يتسرب إلى نفسى، إن الرومان لا يسلمون لنا أنفسهم وديارهم بهذه السهولة واليسر . .

- صدقت . . ولكن لا تنسى أنهم قوم ظالمون مستغلون وأهالى البلاد هنا لا يمكن أن يدافعوا عن قوم أذاقوهم الهوان والعسف .

- أجل يا أخت . . إن الرومان يحاربون بلا هدف، أو قولى إنهم يموتون فى سبيل مجد زائف . . أما نحن فنبذل دماءنا من أجل شىء كبير نؤمن به . .

فابتسمت الصديقة ابتسامة ذات معنى ثم همست قائلة :

- آه يا فاطمة لو تسمعين ما يقال لأخيك خالد من مديح وثناء، إنه سيف الله بلا منازع . . بطل قمع الردة وفاتح العراقين، وهازم الرومان فى أرباض دمشق . . لكم الفخر يا آل الوليد، لقد بنى لكم خالد مجداً على الدهر، لا تبلى جدته، ولا تعفى آثاره . .

فأجابت فاطمة فى تواضع ظاهر :

- إننا نصول ونجول بروح الله يا رفيقة ولا مجد لنا كأفراد، ولكن المجد والخلود لدين الله وللإسلام الذين أخرجنا من الظلمات إلى النور، وخرج بنا من ضيق الجزيرة وانعزالها إلى هذا العالم الكبير الواسع لندعو ونحرر وننشر النور . .

ولم تكد فاطمة بنت الوليد تكمل عبارتها حتى سمعت تكبيرات النصر تنساب من بعيد فتجاوبها صيحات التهليل من كل مكان فى معسكر المسلمين، وخرج الأطفال والفتيات ومن بقى من الرجال يهزجون بالأشعار والأراجيز، ويلعبون بالسيوف والرماح، ويثبون هنا وهناك فى فرح غامر . . بينما انتحت فئة ثانية من الرجال ناحية أخرى وأخذوا يؤدون صلاة الشكر لله من أجل هذا النصر المؤزر الذى طال ترقبهم له، وجلس البعض الآخر يفكر فى المعركة القادمة ويضع الخطط لزحف جديد تتسع به رقعة الإسلام، وتنتشر به كلمة الحق . .

وأسرعت الصديقتان نحو باب الخباء لتمتعا نظريهما بهذه المواكب المبتهجة، وتسعدا بساعات النصر الغالية، ولم تتمالك فاطمة نفسها أن قالت :

- من مبلغ الخليفة عنا بهذا النصر العظيم، لكم تمنيت يا أختاه أن يكون لى جناحان فأطير بهما إلى أبى بكر كى أحمل إليه نبأ الفتح الذى رزقنا به . .

- لا تقلقى من أجل ذلك، إن لم نرسل الرسل إلى الخليفة فسوف تسير الركبان بهذا النصر، وتغنى به فى كل مكان . .

وبعد فترة صمت قالت فاطمة فى شرود :

- واشوقاه . .

- إلى الديار البعيدة؟؟

- أجل . .

صدقت يا فاطمة . . لقد طالت بنا الغربة ولم تستطع بهجة الشام، ونضرة أراضيه أن تنسينا ديارنا رغم جفافها وجدبها .

الوطن غال . . يدفعنا إليه حنين، ويشدنا إليه ذكرى، لكن ماذا أقول؟؟ يجب أن تعلمى أن عزاءنا الوحيد هو أن غربتنا من أجل الله وكفى . .

وبات جليًا أن انتصارات المسلمين الكبرى قد بثت الذعر فى نفوس الأعداء، وكان ذكر هذه الانتصارات مقترنًا دائمًا باسم خالد ابن الوليد، وأصبح اسمه هو الآخر كافيًا لأن يثير الاضطراب والهلع فى قلب العدو، وعلم جنود المسلمين -بل أيقنوا- أن وجود خالد على رأسهم بشير بالنصر، وباعث للثقة، وخيل إلى الجميع أنه رجل الساعة بلا منازع، وأنه خير من حمل اللواء، وأنه لا يقل أهمية وعظم منزلة عن الخليفة نفسه، وأوشك بعض المفتونين أن تتغير نفوسهم، وينقلب إيمانهم بالمثل والمبادئ إلى إعجاب بالشخصية وتقديس لها، وفى الصراع الدامى، والحرب لا تفتر، سارت الأمور دون أن يلتفت أحد إلى هذا التطور الخطير وخالد

مـاضٍ فى طريقـه لا يفكر إلا فى رسم الخطط ، وتدبيـر المعـارك وتصريف الأمور فى البلاد المفتوحة ، ولا يفتأ بين لحظة وأخرى أن يرفع بصره إلى السماء شاكراً الله على ما وهبه من توفيق وما حقق على يديه من نصر .

وفجأة ساد الصمت والوجوم . .

وخفتت الصيحات رويداً رويداً . . ثم اختفت .

حتى الأطفال الصغار كفوا عن اللعب والترنم بالأهازيج والأغانى . .

وأخذ الرجال يتحلقون فى أماكن مختلفة وعلى وجوههم أسف وحزن . . والحيرة والقلق يسيطران على الجميع . .

ترى ماذا حدث . .

هل هناك جديد بشأن المعركة؟؟ هل تغيرت النتيجة فتحول النصر إلى هزيمة ، وأوصدت دمشق أبوابها فى وجوه المنتصرين؟ أم أن أحد الأبطال القواد قد قضى نحبه شهيداً فترك وراءه الحزن والأسى؟

وصارت فاطمة فى حيرة من أمرها ، وأخذت ضربات قلبها تتسارع إشفاقًا وخوفًا ، وصديقتها بجوارها قد استولت عليها الدهشة أيضًا .

قالت فاطمة وقلبها يرتجف :

- ماذا هنالك يا أختاه؟؟

- لا أدرى، لكن قلبى ينبئنى أنه خطب جلل.. قلبى لا يكذبنى أبدًا . .

وفكرت فاطمة فى أن تبعث بصديقتها لتستجلى حقيقة الأمر، وتعود بالخبر اليقين غير أنهما فوجئتا بخالد بن الوليد يقبل فى هذه اللحظة مستأذنًا فى الدخول، فتوارت الصديقة بينما برزت إليه أخته فاطمة واستقبلته فى لهفة غامرة حامدة الله على سلامته ثم هنأته بالنصر الذى أحرزه فى كلمات سريعة مضطربة، ولم تستطع أن تخفى قلقها على هذه الظاهرة التى تبدو فى المعسكر منذ لحظات . .

وألقى خالد بنجاد سيفه فى ركن من أركان الخيمة ثم غمغم وقطرات العرق تتقاطر على جبهته السمراء .

- جرعة ماء يا فاطمة، إن الظمأ يكاد يقتلنى .

وتكلمت فاطمة وهى تقدم له الماء :

- هل جد جديد؟ أراك متغير السحنة، ثم إن المعسكر يسوده الوجوم منذ لحظات .

فأسلمها خالد إناء الماء، وصمت برهة ثم قال وقد تبللت عيناه بالدموع :

- وردت إلينا أنباء تقول إن الخليفة قد ذهب إلى الرفيق الأعلى . .

فصرخت فاطمة على الرغم منها :

- أمات أبو بكر؟

- أجل يا فاطمة . . مات ونحن أحوج ما نكون إليه . . ألسنا ننازل الآن أقوى دولتين فى الدنيا . . الفرس والرومان؟؟

فأطرقت فاطمة وقد انسابت دموعها ، وقالت :

- فليرحمه الله . . أدى الأمانة وحمى الذمار وجدع أنف المرتدين ، وقضى على الفتنة ، ثم رمى بنا فى شتى أنحاء الدنيا لنحقق كلمة الله فى الأرض . . له الجنة . .

وظلت الدموع تنهمر من عينى فاطمة لكن ماذا يجدى البكاء والنحيب ، وقد حم القضاء ، ونفذ قدر الله . . وتحققت سننه التى لا فرار منها ولا فكاك؟ صحيح أن المصاب فى أبى بكر فادح والفاجعة فيه لا تضارعها فاجعة وخاصة فى هذا الوقت العصيب بالذات ، لكن لا حيلة فيما أراد الله . .

وفكرت فاطمة فيمن سيخلف أبا بكر ، وتساءلت بينها وبين نفسها عن مدى كفاءة الخليفة الجديد ، وهل سيحمل العبء بشجاعة وإيمان مثلما فعل أبو بكر؟ وهل سيحقق الله على يديه

النصر؟ وهمت أن تسأل أخاها عن ذلك كله، لكنها استحيت أن تثير مثل هذه الخواطر فى وقت لا يفكر فيه الناس -على ما يبدو- إلا فى المصاب الفادح الذى نزل بهم، واختطف أبا بكر من بينهم.

وقبل أن تترك فاطمة مكانها سمعت أخاها يقول:

- وأوصى أبو بكر قبل موته بأن يخلفه عمر بن الخطاب.

- فقالت فاطمة فى دهشة:

- عمر..

- أجل..

- لكن..

- لكن ماذا يا فاطمة؟

- أعنى أن فيه شدة..

- وهل حكم الناس يكون عن طريق التفريط والتهاون؟..

- ثم إنه يا خالد يحمل لك فى نفسه شيئًا منذ زمن بعيد..

فقال خالد فى لهجة صارمة تحمل فى ثناياها شيئًا من اللوم الواضح:

- لا تنسى يا فاطمة أن النبى ﷺ قال: جعل الحق على لسان

عـمـر، وتقـويم الرجـال يا فـاطمـة يجب ألا يـخـضـع لعـواطفنا، ورغباتنا الشخصية . .

وسكتت فاطمة . .

لقد كبر أخوها فى عينيها أكثر من ذى قبل . .

إن أخاها قائد يفهم واجبات القيادة، وفى الوقت نفسه جندى يفهم أصول السمع والطاعة ولا يحمل لخليفته -رغم ما بينهما- إلا الثقة والحب والتقدير؛ لأن الغاية الكبيرة التى تجمعهما لا تدع فرصة للمطامع الشخصية أن تتسلل بينهما بالتفرقة والعداء . . وفى الواقع لم يكن خالد يفكر بعد ذلك إلا فى مواصلة الزحف وتطهير دمشق وما حولها من الأعداء . .

لم يكن خالد يعلم أن هناك رسالة أخرى قد وصلت من الخليفة عمر بن الخطاب، ومن البديهى أنه لم يكن يعرف -تبعًا لذلك- ما تحويه هذه الرسالة الخطيرة، ولم يكن أحد يتصور أن يحدث ذلك فى هذا الوقت بالذات؛ لأنه يموج بالأحداث الجسام، والأعجب من ذلك أن «أبا عبيدة الجراح» قد كتم أمر هذه الرسالة عن خالد أمير الجيش، ولم يكن أبو عبيدة فى هذا الوقت إلا أمير لواء من ألوية الجيش.

وظل أمر الرسالة مطويًا عن الجميع حتى انتهى المسلمون من أمر

الرومان فى دمشق، وإرساء قواعد العهد الجديد فى المدينة، وما أن استتب الأمر، وهدأت الأحوال حتى أقبل أبو عبيدة على خالد، وفى يده الرسالة التى بعث بها عمر . .

كانت أبو عبيدة مترددًا . .

فالواجب يدفعه دفعًا لأن ينفذ أوامر الخليفة الجديد دون إبطاء، وحبه لخالد، وتقديره لبطولاته يمنعانه من أن يصرح بالحقيقة الرهيبة، أيقول لخالد: إن الخليفة قد عزلك وأنت فى أوج مجدك . . والأقسى من ذلك أن أمير الجيش الجديد سيكون أبا عبيدة نفسه . . يا له من موقف صعب . .

وزاد من صعوبته أن خالدًا إنسان كبير وأن أبا عبيدة هو الآخر رجل فاضل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . .

ولم يجد أبو عبيدة مناصًا من أن ينفض ما بقلبه فى محضر خالد . . وفى تواضع وتأثر همس أبو عبيدة بفحوى الرسالة التى بعث بها عمر فتقبل خالد الأمر بهدوء، وكأن لم يحدث حدث ضخم.

لقد كان يجاهد فى سبيل الله، وهو قائد للجيش كله والآن لم يعد كما كان، لم يكن هذا يمنع من أن يظل مجاهدًا فى سبيل الله - فليحمل سيفه، وليمضِ فى طريقه . .

فالحرب هى الحرب . .

وكلمة الحق التى يحملونها جميعًا لم تتبدل .

والغاية الكبيرة التى يعمل لها الجنود ما زالت تنير الطريق ولا ضير أن يكون خالد جنديًا أو قائدًا ، وأمير المؤمنين يجب أن يكون مطاع الأمر ومسموع الكلمة والفترة الحرجة التى تمر بها الدولة الوليدة يجب أن تتسم بالهدوء والثقة وإنكار الذات .

وبعد فترة صمت قال خالد لأبى عبيدة :

- يرحمك الله . . ما منعك أن تعلمنى حين جاءك الأمر . . ؟

وأجابه أبو عبيدة :

- إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ، وما سلطان الدنيا أريد ولا للدنيا أعمل ، وكل ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه .

وتناثرت الشائعات والوشايات والفتن .

لم يستمع خالد لأقاويل الوشاة ، ولم يلقَ بالاً لأولئك الذين حرضوه على التمرد والعصيان وصرف النظر عن همسات الإثم التى تفوه بها المفتونون بمجده وبطولاته والتى تنفثها الشياطين بين الجموع ، وحينما قالت له أخته فاطمة :

- كان قلبى يحدثنى أن ابن الخطاب سوف يفعلها ويعزلك، لم يعلق على حديثها بشيء.

وفى الصباح التالى كان أبو عبيدة على رأس الجيش مكان خالد.. بينما حمل خالد سيفه ومشى خلفه أطوع من بنانه، وليس فى قلبه مثقال ذرة من حقد أو تمرد.

عندئذ نظرت فاطمة إلى أخيها فى إعجاب وتقدير ثم نظرت إلى أبى عبيدة فى غير ما سخيمة أو أسف ثم غمغمت فى أثر:

- الله أكبر.. لكم النصر أينما سرتم أيها المؤمنون.. يا رجال الله..

●●●

ابن سبيل

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وقليل من الضوء الخافت بدأ يتسلل عبر ثغرات النوافذ والأبواب، وفتح الشاعر الكبير «جرير» عينيه، فوثب على الفور واقفًا وهو يلكز زوجته :

- «ويحك يا امرأة، لقد أشرق النهار، وكان يجب أن تكون راحلتي في طريقها الآن إلى مقر الخليفة الجديد «عمر بن عبد العزيز» .

فقالت زوجته وهي تتثاءب :

- «صدقت، إنها فرصة العمر، وما كل يوم يولى خليفة أو أمير جديد، هيه هات أوزانك وقوافيك وتخير كلماتك بدقة فعمر بن عبد العزيز ليس بالرجل الهين، وما ظنك برجل استقبل الإمارة بالدموع وجلس على كرسيها زاهدًا فيها؟» .

وهتف جرير بخادمه كي يعد له ماء الغسيل، ثم يجهز الطعام والشراب، وما إن اطمأن إلى ذلك حتى التفت إلى زوجه قائلاً :

«لا أظن أن حاكمًا من الحكام، أو أميرًا من الأمراء يستطيع أن يعادى الشعر، إنه لسان الدولة وسجلها المجيد، وسيف بتار فى المعارك الكبرى، هذا أمر بديهى يا امرأة».

فأردفت مشفقة:

- لا أظنه يعادى الشعر، لكن...

- لكن ماذا يا امرأة؟

- «أعنى أن الشعر يد تمتد تطلب المال، الثمن، وعمر بن عبد العزيز من رجال الله، لا تستهويه المدائح ولا تسحره الكلمات الطنانة، إنه طراز جديد من الرجال حسبما سمعت، أخاف أن تكون دولة الشعراء قد دالت كى تقوم على أنقاضها دولة العلماء العاملين..».

هتف جرير محتدًا:

- ويحك يا جاهلة، الشعر ديوان العرب، لو مات الشعر لدالت دولتنا، ذلك هو منطق التاريخ والأحداث.

ضحكت الزوجة ثم دفعته دفعًا رقيقًا فى دلال، وقالت:

- أوه.. إنك تأخذ الأمر مأخذ الجد، وما قصدت إلا إثارتك حتى تبدأ رحلتك نشطًا منفعلاً فتشتعل قريحتك.. أريد أن تفكر

كثيراً وتقدح زناد فكرك . . إن عمر رجل كبير الشأن، وشعرك فيه يجب أن يكون كبيراً مثله .

فقال وقد غزته موجة من الانفعال والكبرياء مترنمًا، ببيت رائع له من الشعر يردده الناس فى كل مكان :

ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح؟

ابتسمت قائلة :

- أجل . . أجل يا جرير .

- نحن لها يا ساذجة، وزوجك من زمن بعيد أصبح سيد الشعراء وحامل لواء الفخار والمجد بينهم، ولذا أصبحت زينة المجالس والمقرب لدى الحكام، فطيبى نفسًا، وإلى اللقاء .

●●●

وأخذ جرير -فيما بينه وبين نفسه- يفكر فيما قالته زوجه عن عمر ويستعيد ما يتناقله الناس عنه، ثم يتذكر الأزمة المالية الخانقة التى دهمته، فاضطر إلى ضغط مصروفاته، متوجسًا خيفة من المستقبل، بل إنه أرغم نفسه إرغامًا على مدح أقوام ليسوا فى منزلة كبرى إذا ما قيسوا بالحكام والأمراء الذين كال لهم المديح من قبل، بل إنه فى قراراة نفسه كان يدرك أن هؤلاء الأقوام أجدر بالهجاء

والقدح، لكن ماذا يفعل والحاجة لا ترحم، ومظاهر الترف -التى يتشبث بها كشاعر كبير- تدفعه دفعًا لأن يصطنع آيات البطولة، ويضيفها على أقوام ليسوا أهلاً لها وينسج منها المدائح الطوال.

أجل إن أزمته المالية ما برحت مستحكمة، فالحكم السابق ظل مريضًا لفترة طويلة والهدايا والمنح والجوائز التى كان يغدقها على الشعراء قد توقفت أو كادت، ومن ثم فإن تولية حاكم جديد فرصة ذهبية لا يجب أن تفلت من يده، وإذا لم ينل جوائز شعره فى مهرجانات الحاكم الجديد، فهل ينالها فى مواكب الرثاء والحزن والدموع؟ إن القلوب المكلومة لا تهزها أريحية إحسان أو تقدير للشعر، لا، لا إن عمر بن عبد العزيز ليس كما زعموا عدوًا للشعر والشعراء فقد حكم الحجاز من قبل بالعدل والبر وملأ الآفاق عدلاً ونوراً، وعقد مجالس الشورى وسعى إلى العلماء فى ديارهم وأبى أن يسعوا هم إليه، وهاجم الطغاة والطغيان دون أن يهاب بطش الأمير الأكبر، مثل هذا الرجل لا يظلم أحدًا، وبالتالى لن يظلم الشعراء أو ينقص من قدرهم..

***

وانطلق ركب جرير إلى حيث يقيم الحاكم الجديد، وخفقات الأمل الحلو تتراقص بين جوانحه، ومن آن لآخر يهزه إلهام الشعر ويبعث ما يشبه القشعريرة أو الرعشة فى جسده، فتنساب الأشعار

طلقة جزلة رقيقة رصينة، متمدحًا بفارس بنى أمية «وفتاها العادل، ورجلها الأول» عمر بن عبد العزيز.

وعلى طول الطريق كانت الأنباء تترى وروايات عجيبة تشبه الأساطير يتردد صداها فى كل مكان وتصرفات لا يكاد يصدقها عقل تتناثر فى جميع الأنحاء وهتاف باسم عمر يملأ الآفاق.

ولعبت الهواجس برأس «جرير» حينما قال له أحد الأعراب فى الطريق:

- ويلك يا جرير، لن تعود إلا بخفى حنين، ألا تعلم أن عمر قال فى أيام حكمه الأولى حين جمع الناس:

- «أما بعد، إن خلفاء بنى أمية قد كانوا أعطونا عطايا، ما كان يصح لنا أن نأخذها وما كان يصح لهم أن يعطونا إياها، وإنى محاسب عليها اليوم نفسى، ولذلك أردها إلى بيت مال المسلمين، وأبدأ بنفسى وأهل بيتى».

هذا ما قاله عمر، فماذا ترجو من رجل مثله يا جرير؟ لقد انتزع جواهر زوجته وردها إلى بيت المال، ورد إلى نصرانى أرضًا كان قد اغتصبها أحد أشراف بنى أمية وصادر كثيرًا من أملاك أولاد عمه.

رد جرير فى غير قليل من الحيرة والقلق:

- هذا ما يجعله أرفع قدرًا فى أعيننا ويزيد من أملنا فيه.

وبرغـم بذور الشك التى أخـذت تنمـو فى نفس جـرير إلا أنه مضى فى طريقه، إن تلك الأخبار عن عمر تزيد مادته الشعرية ثراء وعطاء، وهل يضايقه أن يكون الخليفة عادلاً وباراً، زاهداً فى متاع الدنيا وعبثها؟ ليس الأمر كما يتوهم الناس إن عمر صاحب عقل كبير، وزهد صادق وخلق سمح، ومن المحال أن يتنكر للشعر والشعراء برغم ما نقع فيه من أخطاء النفاق والكذب والتملق . .

وما إن وصل جرير إلى بيت الخلافة حتى راعه ما رأى، فليس هناك جياد مسرجة والحراس والشرطة لا يزحمون المكان ولا يثيرون فيه الضجة أو الرهبة الجديرة بحاكم كبير، يمتد ملكه ورعاياه فى مشرق الأرض ومغربها، وتغطى جيوشه السهل والجبل، والماء واليابس، ولا أثر لجوقة العازفين، والجوارى لا ينظرن من الشرفات أو عبر النوافذ، ولا تنبعث من هناك الأنغام الحالمة التى تنبئ عن الرفاهية والنعيم .

إن جريراً لا يرى بالباب سوى الحاجب ولا يبصر بالداخل إلا «مزاحم» -خادم الخليفة- وقليلاً من الرجال والعلماء يتحركون فى هدوء دون تظاهر أو كلفة .

وخطا جرير نحو الباب .

وجاءه صوت الحاجب :

- إلى أين يا أخا الإسلام؟

قال جرير فى اعتداد :

- أنا جرير . . جئت لمدح الخليفة .

قال الحاجب : الخليفة لا يخصص مجلسًا للشعراء ولا يقابلهم .

هتف جرير فى دهشة :

- يا عجبًا ، هذا أمر ما سمعنا به من قبل؟

- إن الخليفة الآن ينظر فى مظالم الناس ويدبر شئونهم ، وأظن أن ذلك أولى من سماعه القصائد والمديح والتهانى .

تمتم جرير وقد أصيب بخيبة أمل قاسية :

- يستطيع عمر أن يفعل الأمرين : ينظر فى المظالم ثم يستمع إلى الشعراء .

قال الحاجب ساخراً :

- ليس لديك جديد ، كلامكم أيها الشعراء رائع جميل ، لكنكم تقولونه للجميع ، اليوم وغداً .

- الشعر ضرورة من ضرورات حياتنا والخروج عن هذا العرف هو الغريب حقًا .

وشعر جرير بالألم يعتصر فؤاده . . إن معنى ذلك أن يشقى الشعر والشعراء فى أيام العدل والحرية والسلام ، ومعنى ذلك أن

يحمل الشعراء معاولهم ويحرثوا الأرض ويرعوا الأغنام أو يحملوا السلع ويتجروا فى الأسواق، ويخرجوا من حياة الجوائز والعطايا التى ألفوها، ولم يفقد جرير الأمل كلية، بل ظل يتردد على مقر الخلافة طوال شهر بأكمله، دون أن يحظى بلقاء عمر، وابتسم له الحظ حين رأى أحد الفقهاء يتجه صوب الباب قاصداً الخليفة وجرير يعلم منزلة الفقهاء لدى عمر، فاندفع جرير إليه، وأخذ يرجوه ويتوسل إليه كى يمهد له السبيل للقاء الخليفة وأمسك جرير بكم الفقيه، وقال منشداً :

يا أيها القارئ المرخى عمامته

هذا زمانك إنى قد مضى زمنى

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه

إنى لدى الباب كالمشدود فى قرن

وابتسم الفقيه ووعد «جرير» خيراً ثم ذهب إلى الخليفة يستأذن له، وقال الفقيه لعمر :

- كان النبى ﷺ يمدحه الشعراء، ويعطيهم الصلات، فلا تخرج عما فعله رسول الله يا عمر، وقبل عمر لكنه اشترط على جرير ألا يقول إلا حقًا، وكان هذا الشرط قاسيًا بالنسبة لجرير، إن الشعر تحليق وخيال وإذا خرج عن ذلك، عن أكاذيبه الحلوة،

وانفعالاته المهومة وتصوراته الغريبة لن يكون شعراً . . لكن ماذا يفعل جرير؟ هذه هى فرصته الوحيدة لينسى القصائد الطوال التى أعدها من قبل وليبدأ من جديد، إن الخليفة يريد رسالة جديدة للشعر، رسالة الصدق والكرامة الحقيقية وشعر العصر كان شيئًا آخر، فليجرب جرير، وأخيراً وقف جرير أمام عمر، ثم ترنم بأبيات قال فيها:

إن الذى بعث النبى محمداً

جعل الخلافة فى إمام عادل

والله أنزل فى القرآن فريضة

لابن السبيل وللفقير العائل

أنى لأرجو منك خيراً عاجلاً

والنفس مولعة بحب العاجل

هز عمر رأسه ثم قال:

- يا جرير: أأنت من أبناء المهاجرين أم من أبناء الأنصار، فنعرف لهم حقهم؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب الصدقات أن يصلك بما يصل به قومك؟ أم ابن سبيل فلك عندنا ما لأبناء السبيل من زاد ونفقة تبلغك بلادك وركوبة تحملك؟

وطأطأ جرير رأسه فى أسى : إنه أمام رجل لا يريد أن يشترى الكلمات ، ولا تهز أريحيته الألفاظ الضخمة أو المدائح الرصينة ، ولا يريد أن يسمع سوى الحقيقة ولا يعطى المال إلا لعمل أو سبب .

وغمغم الخليفة فى صوت لا يكاد يسمع :

- لو أعطينا الناس على ما يقولون من كلمات لمات الفقراء جوعًا ، وغرق الفصحاء والبلغاء ومزخرفو الكلمات فى النعيم ، لن يكون لشعر المديح فى عصرى سوق ، لن أشترى الهراء على حساب التعساء ودموع المساكين ، ويح عمر إن فعل ذلك ، قولوا كلمة حق تنفع الناس وتزيل البؤس عن الحائرين .

وبعد لحظة صمت همس جرير فى صوت خفيض يائس :

- أنا ابن سبيل يا سيدى الخليفة .

- لنعطك ما نعطى لابن السبيل .

وحينما خرج جرير ، تلقفه الشعراء المنتظرون لدى الباب ، وكلهم شوق ولهفة لمعرفة ما فعل جرير مع الخليفة والجائزة التى حصل عليها ، نظر إليهم جرير فى حسرة ثم هز رأسه قائلاً :

- هذا رجل يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء .

ثم تمتم والذهول يعم الحضور :

- أيها الشعراء، إنه لا يتاجر بالكلمة، فانتظروا عهدًا آخر، وخليفة جديدًا، أو ابحثوا لكم عن أسلوب جديد.

غير أن جرير كان يشعر في قرارة نفسه، وهو يفكر في كلمات عمر بن عبد العزيز، أنه أمام سماء ما طاولتها سماء في عصره.

●●●

قلب الأميرة

تنهدت الأميرة «جوانا»، ودق قلبها دقات سريعة، وساد وجهها شحوب فاتن، ثم التفتت إلى وصيفتها قائلة:

- «زعموا أنه سيحضر الآن لمقابلة أخى الملك «ريتشارد» قلب الأسد.. لقد رأيته من قبل ما أروعه من رجل! يقولون إن اسمه «الملك العادل»، وإنه شقيق صلاح الدين الأيوبى.. وهو الرجل الثانى فى دولته.. أنا لا يهمنى منصبه.. آه يا عزيزتى! لكَم تهزنى رؤيته!! كل مرة يأتى فيها لمفاوضة أخى، أدعو الله من صميم قلبى ألا تنتهى المفاوضات سريعًا، وأن يطول أمدها.. إن رؤياه تروى ظمأ روحى.. تنسينى مرارة الأيام الجافة العصيبة، وهول الحروب الدامية التى لا نهاية لها..».

همست الوصيفة فى خبث:

- «إن الملك العادل رجل ولا كل الرجال.. الجميع يتحدثون عن بطولاته فى الحرب، وعن رجاحة رأيه فى السياسة والمفاوضات..».

وتندت عينا الأميرة جوانا بالدموع، وتمتمت فى قلق:

- «منذ أن مات زوجى ملك صقلية وأنا لا أفكر فى الرجال. . كنت قد أغلقت قلبى من زمن بعيد. . لم أكن أتصور أن مثل هذا العربى المسلم الذى شارك فى تحطيم مملكتنا -نحن الصليبيين- فى الشام، وحشد الجنود لأخى ريتشارد. . وبدد قوانا هو وأخوه صلاح الدين فى عين جالوت. . لم أكن أتصور أن يخفق قلبى له بالحب. . الحب الذى امتلك على كل مشاعرى، وحرمنى النوم، وجعلنى أعاف الطعام والشراب. . إنها لمأساة يا عزيزتى!!».

ابتسمت الوصيفة قائلة:

- «هكذا الحب يا مولاتى. . إنه لا يعرف شرقًا ولا غربًا، ولا صليبيين ولا مسلمين. . القلب متمرد غريب. . عالم كبير بنا مولاتى. . يسعى إلى رغباته فى جنون. . ويتسع للدنيا بأسرها. . أتذكرين يا مولاتى؟؟ عندما سلمته رسالتك التى حملتها إليه شفويًا، والتى قلت له فيها: مولاتى الأميرة جوانا تبلغك تحياتها وإعجابها. . عند ذاك يا مولاتى رأيت نظراته الحديدية ترق. . وارتجفت شفته السفلى. . ونظر إليك وأنت تقفين فى نافذة القصر المفتوحة فى الدور العلوى ثم ابتسم، وقال: بلغيها تحياتى. . إنى أكنّ لها كل تقدير وإعزاز، وأعرف عن أدبها وجمالها الكثير. .».

والتفتت جوانا إلى وصيفتها وقد سيطرت عليها النشوة، وسرى الفرح والبهجة فى روحها العاشقة:

- «أحق ما تقولين؟؟».

ضحكت الوصيفة فى وقار، وقالت:

- «لقد قلت لك هذا الكلام ألف مرة..».

- «قولى مرة أخرى.. أتعتقدين أنه يحبنى؟؟ لو أمسكت قلب هذا الرجل العربى لكان هذا عندى أروع من استيلائنا على «بيت المقدس».. إن احتلال العالم كله لم يملأ فراغ قلبى يا عزيزتى..».

ودقت الطبول فجأة، ودوى نفير مميز، وهرعت الأميرة «جوانا» إلى النافذة، وأرسلت نظراتها الوالهة المتلهفة إلى حيث يجتمع الجنود لاستقبال البطل العربى، وهتفت فى مرح:

- «إنه هو.. انظرى.. ترينه على جواده منتصب القامة فى كبرياء وشموخ.. ومن خلفه رجاله.. إنه يترجل.. يحيى الرجال فى شجاعة وثقة.. ويبتسم.. يبتسم يا مولاتى.. آه.. ها هو ينظر إلى النافذة، أألوح له بيدى؟».

- «لا يا مولاتى قد يرانا أحد رجال معسكرنا.. وقد يعرف أخوك الملك ريتشارد بالأمر ولعل هذا يزعجه..».

هتفت الوصيفة . .

لكن الأميرة جوانا أخذت تلوح بيدها ، غير عابثة برأى وصيفتها ، ودون أن تكترث للوجوه التى اتجهت صوب نافذتها ، لم ترَ إلا «الملك العادل» ، وهو يرفع وجهه نحوها ، ويبتسم لها فى ود ، ويهز رأسه محييًا ، وما إن غاب شبحه عنها ، حتى تراجعت مرتجفة ، وألقت بجسدها المضطرب على المقعد الوثير ، وتمتمت :

- «أرى تحقيق الآمال ! ! »

قالت الوصيفة :

- «لكَم أتمنى ذلك ! ! لكن الأمر متأزم . . فالمسلمون احتلوا بيت المقدس ، وأقاموا فيها القلاع والحصون وجنودنا لا يستطيعون النفاذ إليها ، وأخوك مولاى الملك ريتشارد يأبى أن يعود إلى إنجلترا أو يقبل الصلح إلا إذا سلم صلاح الدين بيت المقدس . . » .

دقت الأميرة الفاتنة على خوان قريب بيدها المتكورة فى ضيق ، وقالت :

- «لا بد أن تنتهى هذه الحرب . . لابد من حل . . إن صلاح الدين رجل نبيل . . لم يغدر بنا قط . . أنسيت معاملته الإنسانية لنا؟؟ ثم فى غير أوقات الحرب . . أيام الهدنات كان رجالنا ورجالهم يسمرون ويتعاملون فى ود وصداقة . . إننى لا أؤمن بهذه

الحرب التى ليس لها ما يبررها . . فأماكن الحج مفتوحة للجميع . . والمسلمون لا يضطهدوننا ولا يتعرضون لحرية العقيدة والعبادة . . ».

انحنت الوصيفة فى أدب، وقالت :

- «لم يكن هذا هو رأيك السابق . . وبالتأكيد ليس هو رأى مولاى الملك . . ».

- «أيتها الخبيثة ! ! إن أخى يود الانتهاء من الحرب بسرعة . . إن المؤامرات والاضطرابات تهدد عرشه فى إنجلترا . . والمسلمون هنا ليس من السهل التغلب عليهم . . ».

وأردفت الوصيفة قائلة :

- «والحب هو العلاج الوحيد . . ».

- «ماذا؟؟».

- «أعنى . . ماذا أقول . . إن ما أقترحه من حل لا غبار عليه، فهو حل حاسم لو استطعنا أن نعبر عن الحقيقة فى صدق . . ».

- «كفى ثرثرة أيتها المأفونة . . يجب أن أعد له رسالة».

- «ولا تنسى يا مولاتى أن تطلبى من الملك العادل أن يطيل أمد المفاوضات . . ».

وشردت الأميرة جوانا بضع لحظات، وأخذت تصر على أسنانها، ثم هزت رأسها فى تفكير عميق، وعادت تقول:

- «اسمعى..».

- «سمعًا وطاعة يا مولاتى..».

- «أريد أن أقابله..».

صرخت الوصيفة:

- «مَنْ؟؟».

- «الملك العادل».

- «أوه.. دون ذلك مخاطر وأهوال..».

- «أنت تختلقين الأوهام..».

- «العيون والجنود وحساسية الأمر..».

- «حساسية الأمر؟؟ ماذا تقصدين؟؟».

- «ماذا يقول الفرسان وهم يرون أخت مليكهم، وأرملة ملك صقلية تطارح فارسًا عربيًا مسلمًا الغرام..؟».

- «سنلتزم الحذر يا غبية..».

- «لكنى أخاف أن ينكشف الأمر..».

هبت الأميرة «جوانا» واقفة، ودقت الأرض بقدمها فى عصبية، وهتفت:

- «لكنى آمرك..».

- «سمعًا وطاعة..».

- «سوف أكتب إليه رسالة.. لابد أن أقابله.. يجب أن أعترف.. إن حب هذا الرجل يملأ قلبى ولا بد من لقائه مهما كان الثمن.. لابد..».

ما إن أنهت جوانا رسالتها وسلمتها لوصيفتها، ودبرت معها الأمر بحيث يحملها إلى العادل أحد الرجال المخلصين، حتى عزمت على الذهاب إلى أخيها لتعلم آخر تطورات الموقف.. كان ريتشارد قلب الأسد -كما يطلقون عليه- يجلس وحيداً وعلامات الضيق ترتسم على محياه، والاحتقان يبدو فى عينيه، ومن آن لآخر يزفر فى ملل وحنق.. وجاءه صوت جوانا وادعًا رقيقًا:

- «أيسمح مولاى أن أقطع عليه خلوته..؟».

- «تعالى يا جوانا..».

- «هل وافقوا على الصلح؟؟».

- «لم يزالوا متشبثين بشروطهم بالنسبة لبيت المقدس».

- «والحل؟!».

- «هذا ما أبحث عنه . . يجب أن أعود فوراً إلى إنجلترا . . لقد ساءت الأمور . . » .

- «أعلم ذلك . . » .

- «وبقائى هنا لا جدوى منه . . لم نستطع أن نحقق نصراً حاسمًا أو نسترد بيت المقدس . . إن مملكتنا فى الشرق مهددة بالزوال . . وعرشنا بإنجلترا تنوشه الأخطار . . » .

ثم ابتسم ابتسامة واهنة ، وسدد إلى أخته نظرات ذات معنى ، وقال وقد ارتجفت أهدابه :

- «وأميرتنا الجميلة تحلم بالحب . . » .

امتقع وجهها ، وأخذت تعبث فى أناملها ، وتمسح على خصلات شعرها فى ارتباك ، وهتفت :

- «ماذا؟؟» .

- «إنى أعرف كل شىء . . » .

- «لا أفهم ما تقول . . » .

- «لن يجدى الإنكار . . إن ميلك للملك العادل أمر يعرفه الجميع . . » .

- «مولاى» .

- «يا أميرتى الحبيبة . . أنا لا ألومك . . إن سلطان القلب قاهر . . ليس بيدنا فى أغلب الأحيان أن نقهر عواطفنا» .

قالت وقد تندت أهدابها بالدموع :

- «أنت تعلم يا مولاى من تكون جوانا . . وأنا على استعداد لأن أضحى بحياتى من أجل المعركة المقدسة التى تحمل أنت لواءها . . اعتبر ما حدث مجرد نزوة ، وإنى لأعدك وعداً أكيداً ألا أعود لمثلها . . » .

هتف ريتشارد :

- «نزوة؟؟ كلا يا عزيزتى . . لقد فكرت فى ذلك . . إنها إلهام من الله ، لعل هذا هو الحل الذى نبحث عنه . . » .

ذهلت «جوانا» وهى تستمع لكلمات أخيها ، أتراه يسخر منها ، وقالت :

- «أى حل تقصد؟؟» .

- «هذا الشقاء الذى نعيش فيه ونكتوى بناره . . » .

- «لا أفهم . . » .

- «قد تعجبين ! ! لكن الفكرة التى تسيطر على ذهنى الآن أغرب من الخيال . . إن الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات هى مشكلة بيت المقدس . . المسلمون يرفضون التخلى عنها . . » .

وصمت برهة ثم استطرد:

- «عندك أنت الحل يا جوانا..».

- «عندى أنا؟؟».

- «لو تزوجت من الملك العادل، فإنى سأؤيد هذا الزواج من كل قلبى.. على أن يتولى العادل ملكًا على بيت المقدس، وأن تشاركيه الحكم سنؤمن طريق الحج، وتوضع كنيسة القيامة تحت حمايتنا.. سنحكم بيت المقدس حكمًا مزدوجًا إذا ما تزوجتما.. وأنا على استعداد لأن أعرض الأمر على مندوب صلاح الدين إذا لم يكن لديك مانع..».

كان الأمر شديد الغرابة بالنسبة لها، لم تكن تحلم بهذا التطور السريع، وفكرت بسرعة، أتراه يبادلها حبًا بحب، لو كان الأمر كذلك، فستتحقق المنى، وتترعرع الآمال الحلوة فى قلبها، وتعيش فى كنف الفارس العربى العظيم الذى تعلق به قلبها، سيسود السلام والحب.. واستطاعت «جوانا» بعد أيام قليلة أن تلتقى بالفارس العربى الملك العادل، وكان هدفها من هذا اللقاء التأكد من حبه لها، فما كانت لترضى أن تقبل حبًا من طرف واحد، وملأت السعادة أرجاء نفسها عندما تيقنت أنه يبادلها حبًا بحب، وأن قلبه الكبير الشجاع يفسح لها مكانًا رحبًا.. وباتت ليلتها تحلم أحلامًا سعيدة رائعة.. لكن سعادتها كانت مشوبة بشىء من القلق

والخوف والغموض . . إن تتحقق آمالها على هذه الصورة الرائعة السريعة تورثها الشك . . وخاصة بعد أن عرض ريتشارد الأمر رسميًا على الملك العادل، ووافق عليه، ثم أيده صلاح الدين، ولم يبقَ إلا التنفيذ . .

وسرعان ما انتشر النبأ فى المعسكر الصليبى . . كثير من الجنود فرحوا باقتراب السلام وعقد الصلح . . لكن رجال الكنيسة كشروا عن أنيابهم . . وفرسان الداوية المتعصبون امتشقوا السلاح، وشهروا سيوفهم فى غضب . . وأفتى الآباء بأنه زواج حرام، وأن نصوص المسيحية ترفض مثل هذا الزواج إلا إذا كان الزوج المقترح مسيحيًا . . وحضر كبير من القساوسة وطلب مقابلة جوانا . .

- «إنك يا ابنتي الأميرة ترتكبين خطيئة كبرى . . ».

- «كيف؟؟».

- «تنسين أنك أرملة ملك سابق، وأخت ملك، ومسيحية صالحة . . أنتم القدوة فى الحفاظ على الدين، وعلى التقاليد الصليبية العريقة . . نحن يا ابنتى على أبواب فتنة كبرى لا يعلم إلا الله مداها . . ».

قالت جوانا فى دهشة :

« مثل هذه الأمور لم ترد على خاطرى يا أبتاه . . لقد اعتقدت

أن مثل هذا الزواج سيحقق السلام والحب، ويحد من إراقة الدماء. . لقد شعرت أننى بذلك أؤدى واجبًا مقدسًا».

قال فى جفاف:

- «لكنه مخالفة صريحة لنصوص شريعتنا. . خطيئة كبرى. . ألا تعلمين؟؟ لا تمسح هذا الخطأ توبة. . عقوبته الجحيم الأبدى. . لم أذهب لأخيك لأنه لا يكترث كثيرًا لآراء رجال الدين. . أنت وحدك تستطيعين حسم الموقف. .».

قالت والدموع على خديها:

- «كيف؟؟».

- «ترفضين هذا الزواج. .».

- «هذه قسوة. .».

- «لكنها إرادة الله. .».

- «مستحيل يا أبتاه. . إن الله لا يرضى الظلم. . والمسلمون يبيحون الزواج من المسيحيات فلماذا نحرمه نحن؟».

- «لكل شريعته. . ألست يا ابنتى الأميرة إحدى المسيحيات المؤمنات؟؟».

- «إننى مؤمنة. .».

- «والإيمان قرين العمل . . » .

- «سأقتل حبى . . سأحاول أن أنسى . . إنه شيء رهيب . . » .

ثم ألقت برأسها على صدر «الأب» وأخذت تبكى، وتقول :

- «اغفر لى يا أبتاه . . لقد أحببته على الرغم منى . . لم يكن لى في الأمر حيلة . . ليتنى لم أرَ العادل . . ليتنى . . لماذا هذا العذاب يا أبتاه؟؟» .

ربت على كتفها فى حنان، وقال :

- «خير لنا أن نخسر المعركة من أن نخالف نصوص الدين» .

- «لكن الجميع يا أبتاه يحلمون بالحب والسلام . . وأصبح من العسير هزيمة صلاح الدين . . » .

- «لقد استقر الرأى على أن نترك بيت المقدس لصلاح الدين على أن يترك لنا الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة بالذات فى يد المدنيين . . وستعودين يا جوانا إلى إنجلترا معززة مكرمة لتتزوجى واحدًا من أبناء دينك . . » .

- «سأعود حزينة يا أبتاه . . إنى أعترف . . ولن أتزوج . . سأعيش راهبة . . آه . . من مبلغ عنى السلام إلى الرجل العظيم الذى سكن قلبى إلى الأبد . . » .

هَمْهَمَ الأب وهو يودعها :

- «لا تحزنى . . لقد رضى عنك الله . . » .

لكنها لم تسمع عبارته الأخيرة . .

كانت خواطرها شاردة إلى بعيد . . إلى فارس أحلامها الشجاع النبيل ، ذلك الفارس الذى روى روحها الظامئة بأعذب رحيق فى الحياة .

●●●

المعطف الأسود

كانت المدرسة الابتدائية التى ندرس فيها بعيدة عن قريتنا حوالى خمسة كيلو مترات، وعلى الرغم من أنها مسافة كبيرة نوعًا ما، إلا أننا كنا نذهب إلى تلك المدرسة مشيًا على الأقدام ذهابًا وإيابًا، وطوال الطريق كنا نتسابق ونغنى وتضحك سواء أكنا فى البرد القارص أم الحر اللافح.

وكانت هناك ظاهرة لافتة للنظر، إنه الطالب «محمد الحداد».. إننا نراه يمضى فى طريقه هادئًا صامتًا، لا يشاركنا فى ترديد الأناشيد المدرسية، أو الثرثرة حول الموضوعات الكثيرة التى نتحدث عنها، إن محمدًا يمضى ساهمًا شاردًا، ينظر إلى الأفق الأزرق، ثم إلى الحقول الخضراء، وكأنه يناجيها وتناجيه.. ومسحة من الحزن العميق ترشح من ملامحه الدقيقة، وكان ضئيل الحجم، متقد الذكاء، ترتيبه الأول دائمًا وظل محافظًا على تفوقه إلى أن دخل كلية الطب. وكان يسبقنا بعامين دراسيين.. وقريته

تبعد عن قريتنا ما يقرب من كيلو متر ونصف، إنه يمشى إذن ثلاثة عشر كيلو مترًا يوميًا. .

وحتى فى كلية الطب بقى محمد الحداد منطويًا على نفسه بعيدًا عن كل ألوان الصراع فى ذلك الوقت. . أى فى الأربعينيات من هذا القرن. . حيث كان الصخب السياسى على أشده، والحرب العظمى تهز العالم هزًا والقرارات الدولية تغير من خريطة بلدان كثيرة وحركات التحرير تشتغل فى كل مكان. . وكان يلزم نفسه بنظام صارم فى العمل والأكل والنوم، ولا يسمح لأحد بأن يخرجه من الدائرة التى رسمها لنفسه. .

سألته مرة عن أبيه فقال باقتضاب: «نعم. . إنه لا يزورنى فى العاصمة ولن يزورنى أبدًا. . لقد مات منذ سنوات رحمه الله. .».

وكان الحزن الشديد يغلف كلماته الموجزة إذا ما جاء ذكر أبيه. . وفى أكثر المرات كان يهرب بلباقة من الحديث عن أبيه، مما أثار فى نفسى الشكوك، وعندما كنت أجلس معه فى المطعم وأذكر شيئًا عن أبى أرى وجهه يمتعض، ويلتهم ما تبقى من طعامه بسرعة وينصرف، ولعل هذا الغموض فى تصرفاته جعلنى ألح فى معرفة الكثير عن أبيه، لكنه كان يتركنى ليؤدى الصلاة التى يواظب عليها، أو يلجأ إلى كتاب يتصفحه، أو يذهب إلى حمام ليغسل منديلاً. . دائمًا يهرب.

وسألته مرارًا: «لماذا لا تنتسب إلى أى حزب سياسى؟»، فكان يرد قائلاً:

- «أنا لا أؤمن بتلك الأحزاب، الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن أخدم بها وطنى هى أن أجد فى طلب العلم، التقدم العلمى هو الكفيل بحل كل مشاكلنا..».

لكنى أعود وأقول له:

- «الأرض محتلة، وكثيرًا من الطلبة ينضمون إلى معسكرات الفدائيين، والمستعمرون لا يفهمون إلا أسلوب القوة..».

ويهز محمد رأسه قائلاً:

- «العلم قوة.. والأحزاب السياسية تتاجر بدماء الشباب.. أنا لا أنكر أهمية الكفاح المسلح.. لكنى مقتنع أن مكانى أنا شخصيًا فى المعركة هنا.. فى الكلية ولكل أسلوبه فى العمل الوطنى..».

نظرت إليه فى دهشة، وكانت طريقته تخالف طريقتى فى التفكير، وكانت حماستى لما أؤمن به، تتناقض مع هدوئه ومنطقه البارد، وتتناقض أيضًا مع عمره، فهو فى فترة الشباب المتوهج، لكنى أراه وكأنه كهل قد تخطى الخمسين من عمره.. وقلت مستفسرًا:

- «مَنْ علمك هذا المنطق؟».

شرد إلى بعيد، وقال:

- «الأيام.. وفى قريتنا مثل يقول: من لم يعلمه أبوه وأمه تعلمه الأيام والليالى.. أنا لست جبانًا، ولكن لكل طريقته»، ورجحت أن أباه لا شك رجل طيب مسالم، رباه على التسامح والعبادة والعمل الجاد، ونزع من قلبه نوازع التمرد والثورة والاندفاع.. وكان يردد دائمًا: «أنا أسابق الزمن.. أريد أن أنهى دراستى بأقصى سرعة ممكنة» إنه يعرف طريقه جيدًا، ويسير فيه دون أن يلتفت إلى وراء.. هذا ما كان يبدو لى.

أمر آخر لفت نظرى، وهو أن محمد الحداد لم يكن يقيم أية علاقات مع أهل بلده أو أقربائه، وكثيرًا ما كنت أسأله عن السبب فيعلل ذلك برغبته فى العزلة والانطواء حتى يتفرغ لدراسته، وكلما مرت الأيام أيقنت أن محمدًا يخفى وراءه أمرًا ذا بال، إنه نمط فريد من الزملاء، حتى فى علاقاته مع زميلات الدراسة، كان يعاملهن بجفاف واقتضاب فإذا سألته إحداهن عن محاضرة من المحاضرات، قدم إليها كراسته صامتًا وإذا حيته فتاة منهن هز رأسه محييًا وانصرف معجلاً، وإذا جلست إلى جواره أخرى، تسلل فى هدوء، وبحث له عن مكان آخر، فاجأته بقولى ذات مرة:

- «ألم يتعلق قلبك بحب فتاة؟».

هتف فى ضيق :

- «هذا كلام فارغ . . » .

- «ألن تتزوج إذن؟ . . » .

- «من قـال ذلك؟؟ بالطبع لابد أن أتزوج . . لكن الوقت لـم يحن بعد . . » .

قلت له :

- «وكيف ستتزوج بلا حب؟؟» .

قال فى يقين :

- «عندما يحين الزواج سيأتى معه الحب» .

واقتربت منه ولمست كتفه قائلاً :

- «لكن قلوبنا تخـفق على الرغم منا . . حـتى القطط تفـعل ذلك . . » .

ابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال :

- «والكلاب أيضًا . . لكنى أعرف كيف أتحكم فى مشاعرى» .

قلت ساخراً :

- «أنت إنسان خارق . . » .

ورأيته ينظر عبر النافذة . . حيث العمارات العالية المتزاحمة ، والمآذن الشامخة ، وأدخنة المصانع التى تزفر فى جوف السماء غاضبة ، ثم قال :

- «كان أبى رحمه الله يتفاهم دائمًا بيده . . وأنا لى أسلوب مغاير تمامًا ، إننى أتجاهل الحماقات ، وأتخذ من عقلى وسيلة لحل معضلات الحياة . . الحياة أقوى منى ومنك ومن أبى . . وأية قوة مهما كانت . . مصيرها إلى التضاؤل والضمور . . تلك سنة الوجود . . » .

قلت ضاحكًا :

- «أنا أتحدث عن الحب . . » .

قال :

- «وأنا أتحدث عن الحياة . . » .

همست :

- «يا صديقى . . الحياة بلا حب صحراء قاحلة . . » .

استند على مكتبه الخشبى الصغير ، وقال :

- «الحب فى أذهانكم مرتبط بالجنس ، والحياة فيها ألوان عدة من الحب . . » ، ودق جرس ساعة الحائط ، فرأيته ينتبه كمن يفيق من غفوة طارئة ، ثم هتف :

- «لقد جاء وقت العمل . . تستطيع أن تنصرف . . » .

قلت مازحًا :

- «أتطردنى؟؟» .

قال فى خجل :

- «إنى مرتبط بعمل لابد أن أنجزه فى الوقت المحدد . . » .

حينما عدت إلى مسكنى كان أبى فى انتظارى ، لقد عاد من القرية ، حاملاً معه أطايب الطعام ، وتحيات الأهل والأقارب والمبلغ الشهرى لمصروفاتى ، عندما رأيته قبلت يده كالعادة ، وفهمت أنه انتظرنى طويلاً ، وعندما تساءل عن المكان الذى كنت فيه ، أخبرته عن صديقى «محمد الحداد» ، وأخذت أذكر له بعض المعلومات عنه ، وعن أسلوبه فى الحياة ، وعن قريته القريبة من قريتنا ، وهز أبى رأسه قائلاً :

- «أوه . . تذكرت . . إننى أعرف أباه . . حسن الحداد . . » .

وهزتنى المفاجأة ، هذا ما كنت أتمناه ، إننى أريد أن أعرف شيئًا كافيًا عن صديقى هذا الذى حيرنى أمره ، ووجدت أبى ينظر إلى فى حيرة ، أدركت أنه يعرف الكثير عن حسن الحداد ، لكنه قال أمام إلحاحى :

- «لا تفكر فى هذا الأمر ، وما شأنك أنت بأبيه؟؟ يكفى أن

محمداً شاب طيب مجتهد . . لكم تمنيت أن تكون مثله ، وأن تبتعد عن صراعات هذا الزمان الأعمى . . الناس فى عصرنا قد أصيبوا بالخبال والجنون . . وأمس غير اليوم . . وأنا دائمًا أحذرك من الخوض فى أمور السياسة . . » .

لم أكن أميل كثيراً لوجهة نظر أبى فنحن جميعًا مسئولون عما يجرى فى العالم وفى بلادنا عقب الحرب العظمى ، ومع ذلك فقد كان اهتمامى الأكبر مركزاً على معرفة والد صديقى . . ولم يستطع أبى أن يفلت من حصارى بالأسئلة وأخيراً قال :

- «كان حسن رحمه الله وغفر له متهوراً . . لقد بهرته لعبة الموت . . حمل سلاحه وانطلق فى أنحاء منطقتنا يقتل ويدمر . . لقد غزا قلوب الناس بالرعب . . كان وسيمًا لطيفًا . . لكنه سريع الغضب ، حاد الذكاء ، يحسم الأمور بطريقته الخاصة . . لا يثق فى شىء قدر ثقته بسلاحه . . ويبدو أن التجربة القصيرة الناقصة قد دعمت إيمانه بالقوة . . أصبح مطاع الأمر . . لم يجد من يقول له : «لا» وكان الناس يبشون فى وجهه ، ويفسحون له صدر المجلس ، ويؤمنون على كل كلمة يقولها . . حتى عمدة القرية كان يخشى بأسه ، ويلبى طلباته ، ويخاف أن يبلغ السلطات عن جرائمه ، فكانت كلها تقيد «ضد مجهول» .

وصمت أبى برهة ثم قال :

- «دعنا من هذا الأمر . . يكفى ما قلته . . إنه صديقك الحميم الآن» .

أمسكت بيد أبى متوسلاً :

- «أؤكد لك يا أبى أن هذا لن يؤثر على علاقتى به . . » .

قال أبى :

- «المشكلة ليست فى السلاح الذى كان يلعب به اللعبة الخطرة . . المشكلة هنا . . » .

وأشار أبى إلى رأسه ، ثم استطرد :

- «إن الأفكار التى تعشش فى رءوسنا هى التى تحدد لنا الهدف والوسيلة ، وحسن كان فى بدء حياته رجلاً نظيفًا طيب القلب شجاعًا صريحًا ، وكان يعمل لدى أحد ملاك الإقطاعيات الكبيرة . . وتعرف أنت ألوان الصراعات السياسية حيث الانتخابات ، والتسابق فى تنمية الثراء ، والخلافات الخطيرة بين الأسر الكبيرة ، ووقع حسن المسكين فريسة فى يد الكبار . . فحاولوا رشوته . . امتنع . . فطردوه من عمله . . عندئذ ثار وصرخ «هذا ظلم . . ظلم ولن أسكت» لم يجد من ينصفه . . حاول أن يصلح العلاقة التى فسدت ففشل . . ويومًا ما كان يسير فى الطريق العام . . فوجئ ببصقة على وجهه . . إنها رسالة سخرية واستهزاء

بعث بها إليه صاحب الإقطاعية الكبيرة، رداً على ما سمعه عن حسن من أنه يهدد ويتوعد . . ليلتها لم ينم حسن . . باع بقرته وحماره واشترى «بندقية»، وكان لابد أن يدفع صاحب البصقة حياته ثمناً لخطيئته . . وهاجت القرية وماجت . . ولم يكتف حسن بهذا . . بل ذهب إلى الرجل الكبير نفسه . . وقضى عليه . . وسالت دماء ودماء . . وأصبح حس الحداد هو الرعب بعينه . . كان صديقك محمد لم يزل طفلاً فى الخامسة من عمره . . وكان الناس يدللونه . . فهو ابن حسن . . الرجل المرهوب الجانب . . .

وتنهد أبى فى حسرة، وقال :

- «والنهاية دائماً معروفة . . خرج حسن ذات صباح . . كان فى انتظار ناظر العزبة الجديد الذى تجرأ عليه وتناوله ببعض كلمات التهديد والتحذير . . اعتبر حسن ذلك إهانة كبيرة . . ووصل الناظر . . ووجه إليه حسن بندقيته . . لكأنما أصيب حارس الناظر المسلح بالشلل عندما رأى حسن . . أطلق حسن غدارته . . لكن الرصاصة لم تخرج . . هكذا أراد الله . . هتف الناظر بحارسه . . اضرب يا ولد . . اضرب فى المليان على مسئوليتى، لم يكن حسن يتوقع أن يجرؤ الحارس على فعلها . . فأخذ حسن يحاول إصلاح سلاحه، بينما أمسك الحارس غدارته بيد مرتعشة، وصوبها صوب حسن . . فأصابت منه مقتلاً . . وخرج الناس من كل صوب ليروا

الرعب المجسد، وقد تحول إلى جثة هامدة. . ورأوا زوجه وولده محمداً يبكيان عند رأسه».

هززت رأسى، وقد أفلتت دمعة من عينى على الرغم منى، وتمتمت:

- «الآن. . فهمت. . ».

وقال أبى:

- «بالله عليك يا ولدى لا تجعل صديقك يعرف أنك قد ألممت بالحقيقة. . ».

●●●

محمد الآن أستاذ للأنف والأذن والحنجرة، وحوله فرقة من الأطباء حديثى التخرج وهيئة التمريض، إنه يقف بينهم فى معطفه الأبيض الذى يشع صفاء وبهاء وثقة، ويقول الملاحظات فيسجلها الطلبة، ويطلب شيئًا فيهرع الأطباء والممرضات لتنفيذ ما أراد، والصحفيون يجرون خلفه لكى يأخذوا عنه الأحاديث الطبية، وبراعته فى الجراحة أصبحت على كل لسان، وفى مجلس الكلية له رأى مسموع، لكنه لا يفكر فى شىء سوى عمله وأسرته الصغيرة. . إن أمه تعيش معه منذ سنوات فى المدينة بشقة فى حى راقٍ، وقد تزوج من أسرة عريقة، وهو لا يؤمن بالاختلاط، ولذا

فأنا لم أرَ زوجته حتى الآن، أما طفلاه فهما فى إحدى المدارس الخاصة، وعندما يذهب محمد إلى قريته -ونادراً ما يذهب- يحتشد الناس من حوله فى حب وتقدير، ويحيطونه بكل ألوان المجاملات، وإلى جوار بيته الجديد المبنى على الطراز الحديث، تجلس امرأة عجوز قد بلغت الثمانين . . دائماً تردد:

- «سبحان الله . . قادر على كل شىء . .» .

●●●

العدالة

قلت لهم: «أنا لا أعرف شيئًا عن السلاح»، قلتها في صدق وإخلاص وإصرار، نبراتي ودموعي كلها توحي بالثقة، أقسم بالله العظيم، لكن نظراتهم الغاضبة المسددة إليّ، والسياط التي تتطوح في أيديهم، والوجوه المحتقنة العابسة، كانت تعني أنهم لا يصدقون. . ماذا أفعل؟؟ وانهالت السياط مرة أخرى على جسدي العاري. . إن جسدي حساس أشعر بآلام رهيبة، قوة احتمالي محدودة. . وحينما انتزعوا أحد أظافري خيل أن ما حولي كله ظلام في ظلام. . الآلام البشعة أفقدتني الوعي. . وأفقت فرأيتهم يأتون وينتزعون ظفرًا آخر. . الرجل الذي يفعل ذلك يؤدي مهمته ببساطة وقوة أعصاب غريبة. . لا تختلج في وجهه عضلة واحدة. . هتفت مستغيثًا: «حرام يا ناس»، وابتسم الشيطان في سخرية: «نحن نعرف الحلال والحرام أكثر منك. . أنت الذي تعذب نفسك. . وسنستمر حتى الموت. . الموت!! عندئذ تحملك

سيارة قذرة، وتلقى بك فى حفرة نائية فى أعماق الصحراء . . دون أن يدرى بك أحد . . هذا إذا لم تخبرنا أين السلاح . . » .

لم تكن عينى قد ذاقت النوم منذ ثلاث ليال . . وأبى يجلس الآن أمام المنزل يدخن سيجارة، فى ظل الشجرة الكبيرة، والقلق يعمر قلبه، ويرعش يديه . . أنا أعرفه . . وأمى لا شك تجلس باكية فى الحجرة الداخلية، مرتكزة بخدها على قبضتها . . وأختى الصغيرة «هناء» تناغى عروستها الجميلة المصنوعة من البلاستيك . . وقريتنا الفقيرة الوادعة تؤدى واجبها فى صمت وصبر منذ آلاف السنين . . وأنا هنا فى مواجهة الجلاد . . ولا أعرف شيئًا عن السلاح . . وكل جريمتى أنى صديق قديم، منذ أيام الدراسة، لأحد المتهمين . . واسمه «عبد الله» . .

ومرت ساعات من العذاب والشقاء والتعاسة . . كأنها دهر . . والناس يتحدثون عن الصمود والشجاعة والتضحية على صفحات الكتب . . وفوق المنابر . . وفى المحافل . . أتذكر كل ذلك الآن . . وأنظر إلى نفسى . ماذا أرى؟؟ كومة من اليأس والحطام والاضطراب الفكرى . . رفعت بصرى إلى السماء . . آه «لا سماء» لأن السقف أسود كئيب، والنافذة مغلقة . . والباب ذو القضبان الحديدية . . وضعوا فوقه ستارة كالحة . . لا يمكن أن أكون حيًا . . هذا ما بدا لى . . هل أصابنى الموت وأنا الآن أعانى عذاب القبر . .

الذين لم يجربوا هذه المعاناة سيضحكون . . لأنهم يقرءون كثيراً عن حضارة القرن العشرين ، والتقدم ، ورفاهية الإنسان . . أنا بالأمس كنت مثلهم . . لكن التجربة صفعتنى صفعة هائلة ، أفقت من وقعها على الوجه الثانى لحضارة الإنسان . . الوجه الحقيقى . . لماذا أخدعكم؟؟ القيم الكبرى التى كنت أؤمن بها تنزوى فى قلبى . . تموت . . لو نجوت . . آه . . سأعيش لنفسى . . لن أصادق أحدًا . . نفسى . . نفسى . . السوط وانتزاع الأظافر وكلمات الجلاد الساخرة الجارحة حطمت فى روحى كل ما تعلمته وتربيت عليه طوال ثلاثين عامًا . . ثلاثة أيام مسحت من قلبى كل السطور المضيئة . . وشعرت أنى عاجز تمامًا عن أن أحتمل أى مزيد من العقاب . . فقد انهارت كل القوى المعنوية والمادية التى تسند كيانى ، وتعتمد عليها إنسانيتى . . أصبحت أضعف من حيوان ، وأضيع من الجلاد . . وحينما اقترب الشيطان لينتزع الظفر السادس من يدى اليسرى هتفت ضارعًا :

- «ارحمنى . . » .

قال فى رقة لم أعهدها فيه :

- «لماذا يا ولدى لا تخلص نفسك؟؟ إن السلاح عند «عبد الله» وتحرياتنا تؤكد ذلك . . وأنت الوحيد الذى يستطيع أن يشهد بذلك . . » .

قلت ودموعي تسبق كلماتي:

- «أنا لا أعرف»..

اكفهر وجهه، وجذب يدي وانتزع الظفر السادس والسابع.. الآلام البشعة.. الدماء.. الخوف من الموت.. اليأس.. ودار رأسي، اختلطت المرئيات، ذئاب.. وثعالب.. غابة هائلة من الوحوش.. أنياب دامية.. مخالب.. أشواك.. ظلام مرعب.. وتمتمت ببضع كلمات:

- «السلاح عند عبد الله..».

وامتلأ المكان بالضحكات، حاولت أن أتكلم فاحتبست الكلمات في حلقي، ثم تكلمت بصعوبة، فضلت الكلمات طريقها وسط الضجيج والسخريات والضحكات.. وكلمات كثيرة يتداولها الجلادون: «أنا أعرف هذا الصنف من الناس.. لا يعترفون إلا وهم على حافة الموت».. «دموعهم كاذبة دائمًا، وقسمهم حنث كله، حيوانات..».. «يداي كلّتا من ضربهم وهم صابرون.. أي بشر هؤلاء؟!».

حينما عادوا بي إلى حجرتي ارتميت على «البرش» ولم أعد أشعر بنفسي، كنت جائعًا للنوم.. ولست أدري هل طال بي الوقت أم قصر.. لقد صحوت على صراخ وضراعات.. هذا صوت «عبد الله» إنني أميزه جيدًا.. دق قلبي في رعب.. انتصبت

واقفـا، وجسـدى كله يرتجف، لـم أعد أشعـر بأية آلام. . وبقـيت مسمراً بضع دقائق. . ودخل علىّ السجان، وقال:

- «أتريد شيئًا؟؟».

ولما لم أجب، هز رأسه في أسف، وقال:

- «مسكين عبد الله. . إنه يرفض الاعتراف. . أما أنت فقد نجوت بنفسك أنت عاقل. . إما أن يعترف عبد الله أو يموت. . ».

صرخت فى جنون:

- «لا. . عبد الله مظلوم».

- «أنت اعترفت عليه. . ».

- «لم أعترف. . ».

- «لقد وقعت بيدك على محضر التحقيق. . ».

نظرت إلى يدى المرتجفة، وأظافرى المنزوعة، ثم رفعت إلى السجان وجهًا حزينًا:

- «أنا جلاد مثلكم. . أنا كاذب. . كاذب. . كاذب. . ».

ودوت على وجهى صفعة قوية، نظرت إلى السجان الغاضب، وعينيه الشرستين، وشفتيه المزمومتين، وسمعته يقول:

- «أتهزءون بنا؟!».

وشهقت باكيًا، واضعًا يدى على وجهى، وأخذت أقول:

- «عبد الله مظلوم.. لم أقل ما قلت إلا لأخلص نفسى من الآلام..».

قال ساخرًا:

- «وتزعم أنك بطل؟!».

- «لم أقل ذلك.. أنا ضحية.. لم أسئ لأحد.. طوال حياتى لم أرتكب جرمًا.. الله يعلم.. والناس فى قريتنا يعرفون..».

وصاح السجان، وهو يركلنى بعنف فى بطنى:

- «ملعون أبوك.. وأبو بلدك».

برغم الآلام التى انداحت كالدوامات المتتابعة فى بطنى إلا أننى قلت:

- «أرجوك.. خذنى إلى الضابط.. أريد أن أقول له الحقيقة..».

- «لم نعد بحاجة إليك، أخذنا اعترافك وتوقيعك.. ألم تقرأ ما كتبته الصحف اليوم؟؟ انظر.. هذه صورتك وصورة عبد الله.. واعترافاتك الخطية.. ماذا بعد ذلك؟؟ أتريد أن تحرجنا لدى المسئولين ولدى الناس؟؟».

وجذب وراءه الباب وانصرف..

وساد صمت رهيب. . أخذت أدق رأسي وقبضتي في الجدار الصلب العتيد. . كل شيء ليس فيه أدنى حنان أو مرونة. . الجدران. . الباب الحديدي. . نظرات الجلادين. . الوجوه الجامدة. . عالم غريب لا يعرف الحب. . لا يعرف الله. . ومن ثقب صغير في الستارة رأيت طبيب السجن يهرول. . ماذا جرى؟؟ لابد أن أحد الجلادين قد أصابه الإرهاق كما يحدث في كثير من الأحيان. . لكنني لا أسمع صرخات عبد الله. . وعاد الطبيب من حيث أتى بعد فترة. . ثم رأيت جسداً ملفوفًا في «بطانية» جرباء مهترئة. . موضوعًا على منضدة ذات عجلات صغيرة. . وللعجلات لحن حزين كالأنين. . واقترب أربعة من الجلادين من باب زنزانتي الخافتة الضوء. .

قال واحد منهم :

- «عبد الله لم يعترف. . ».

وقال الثاني : «أين السلاح؟؟».

قلت في ذهول :

- «ليس للسلاح وجود إلا في أذهانكم. . ».

- «يا ابن الـ. . ولماذا اعترفت عليه؟؟».

ضحكت في هستيرية :

- «كنتم تريدون ذلك . . وتصرفت دون وعى . . ».

قال أحدهم وهو يغمز بإحدى عينيه :

- «لقد مات . . ».

اندفعت كالمجنون أضرب فى كل اتجاه . . الغابة . . والوحوش . . والأشداق والأنياب الملونة بالدم . . كنت أضرب . . وفى لحظات . . أمسكوا بى . . وقال سيدهم :

- «لم نكن نريد غير الحق . . ».

نظرت إلى السياط . . وآلة نزع الأظافر الجهنمية . .

وتمتمت :

- «الحق؟؟».

وقال سيدهم دون اكتراث :

- «الظاهر لا فيه سلاح ولا زفت . . ».

ولم أعد أذكر غير ذلك . .

ملحوظة: سجلت هذه السطور بمستشفى الأمراض العقلية . . فى مدينة ما . . فى دولة ما . . فى العصر الحديث . . القرن العشرين . . عصر العلم والمدنية .

●●●

الحلم الجميل

كان خفيف الظل، وديع الروح على الرغم من دمامته التى تبدو لأول وهلة، طريقته فى الكلام، وأسلوبه فى المشى والحركة، واستقباله لأصدقائه ومعارفه، كلها تبعث على الانشراح والبهجة، ولهذا بدت انحناءة ظهره الخفيفة، والحول الذى فى عينيه، وعنقه المسرف فى الطول، وعوده القصير، بدت وكأنها معالم جاذبية وخفة . .

وكانت أبرز صفات «عبد النافع» هى أنه يقاد ولا يقود، مجرد جندى بسيط متواضع، سريع الاقتناع بما يؤمن أنه حق، ولا يحب الدخول فى الجدل العقيم، والمعارك الكلامية التى لا يؤمن بجدواها . . ولعل زملاءه فى السجن، كانوا يتعجبون . . لماذا أقحم عبد النافع نفسه فى تلك المعارك السياسية الطاحنة فى أوائل عام ١٩٥١ وأواخر ١٩٥٢؟؟ . .

مثله لا يبدو عليه -لأول وهلة- أنه ممن يطلق عليهم اسم الوطنيين . . .

كانوا يطلقون عليه «الدكتور عبد النافع»؛ لأنه طالب بكلية الطب البيطرى، وكثيراً ما استغله زملاؤه فى خداع السجناء والسخرية منهم، وخاصة القساة منهم، ولا يستطيع أن ينسى النزلاء يوم أن جاء الباشسجان «متولى» المعروف بصلفه وخشونته، واشتكى للدكتور عبد النافع من ألم فى حلقه. . ابتسم عبد النافع فى هدوء، ثم أمسك بفك متولى الضخم، حتى لامست أصابعه شاربه المفتول المخيف، وتطاول عبد النافع، ثم مد عنقه الطويل، وصاح فى متولى:

- «افتح فمك. .».

وفتح متولى فمه، فبدت أسنانه الصدئة. .

وعاد عبد النافع يقول. .

- «قل نع. . .».

قالها السجان فى صوت خفيض، فهتف عبد النافع:

- «عيب يا رجل. . ارفع صوتك حتى أستطيع رؤية اللوز. . قل نع. . . . ع. . . ع».

وارتفع صوت «متولى» عاليًا، وقد تجمعنا حوله، ونحن نحاول جاهدين أن نكتم ضحكاتنا، وأخذ يردد:

- «نع. . . ع. . . ع. . . ع».

كان صوته ينبعث كصوت ثور عجوز، لم نستطع السكوت أكثر من ذلك فانفجرنا ضاحكين، وقد فاضت عيوننا من شدة الانفعال، وصاح متولى:

- «لماذا تضحكون»:

رد عبد النافع بهدوء عجيب:

- «لا تؤاخذنى يا باشسجان. . شغلى دائمًا مع البهائم. . ».

وانفجرت موجة عاتية من الضحك أذهلت السجان، بينما أقبل سجان آخر، وقال لمتولى:

- عملوها فيك. . الدكتور عبد النافع طبيب بيطرى. . فاربد وجه متولى وهدد. .

- «أتسخر منى؟؟».

- «أبدًا. . لكننى لا أتأخر عن أية خدمة تطلب منى. . وأطباء الحنجرة البشريون يفعلون ذلك الفرق بيننا فى كلمة واحدة. . يقولون لمريضهم قل: آه. . وأنا أقول لبهائمى قولوا: نع. . . ».

وهكذا كانت نوادر عبد النافع لا أول لها ولا آخر، كل شىء فيه يضحكنا، شىء واحد كان يلتزم فيه الصمت، ويصغى بكل جوارحه، وذلك عندما نتكلم عن القضية الوطنية والأحزاب والملك والإنجليز فى القتال ومأساة فلسطين. . ولا شك أن بعضنا كان ضيق الأفق، يركز اتهاماته فى بعض الشخصيات السياسية المنحرفة،

ويفكر في إصلاحات جزئية تافهة، أما عبد النافع فقد كان يقول ببساطة: «يجب هدم هذا النظام من أساسه وإقامة حياة جديدة.. كل شيء فاسد.. أنا لا أفهم من كلامكم سوى هذا..».

والغريب أن والد عبد النافع كان من ذوى الرتب العالية.. موظف درجة أولى، وكنا نستلقى على ظهورنا من الضحك عندما يرد ذكر أبيه، كان عبد النافع يقول:

- «فى السجن أنا مستريح.. لشد ما أخاف من يوم الإفراج عن المعتقلين!! أتدرون لماذا؟؟ لأنى لا أعرف كيف أستقبل أبى.. عندما يرانى فلسوف ينهال علىَّ صفعًا وركلاً.. كان يقول لى: أنت حمار.. أنت لا تفهم إلا فى تشريح الثور فما دخلك فى السياسة.. والغريب أن الكلية ألغت الثور من المقرر.. والطلبة الآن يشرحون الحصان.. وأبى مُصر على أنى ثور..».

ثم ينسى عبد النافع الثور والحصان وأباه، وتشرق ملامحه فجأة، ويكتسى وجهه بنور قدسى خفى المصدر وتذوب نظراته رقة ووداعة، وينسى من حوله، ويحيا للحظات فى حلم وردى جميل، ويهمس دون وعى:

- «آه يا نعيمة..».

وتنطلق الضحكات من كل جانب، وتنصب عليه تعليقات الأصدقاء:

- روميو ولا أحد يعلم!!

- أتحب يا مقصوف الرقبة؟

- لا شك أنها فى مثل جمالك، والطيور على أشكالها.. يا.. يا دكتور.. فلا يكاد يسمع شيئًا من تعليقاتهم الساخرة بل يظل سابحًا فى عالم جميل ويهمس:

- «أنتم لا تعرفون نعيمة.. إنها ملاك طاهر.. أرى فى عينيها الحب والحياة.. ابتسامتها أغلى عندى من كنوز الدنيا.. من أجلها كل عذاب يهون.. ونعيمة تخطر فى بيتها.. لكنها فى الحقيقة تعيش فى قلبى.. إنها ابنة خالتى.. قلت لأمى ذات مساء أريد أن أتزوج نعيمة.. ثارت فى وجهى قائلة: لا تتكلم فى مثل هذه الأمور لأنك لم تزل صغيراً أولاً.. ولأنك لم تتخرج ثانيًا.. ولأن أباه على قد حاله.. يعنى فقير ثالثًا.. لكن نعيمة شىء آخر.. إنها تغنينى عن كل متاع الأرض وذهبها.. إنها الغنى بعينه..».

فيرد أحد الزملاء المشاغبين..

- «لم تخبرنا.. هل تبادلك نعيمة حبًا بحب؟؟».

فيصل هذا السؤال مسمعيه، ويفتح عينيه فى قلق، ويفيق رويدًا رويدًا من حلمه الجميل، ويهمس:

- «لم أسألها».

- لماذا؟؟

- اعتقدت أنه سؤال لا معنى له . .

- كيف؟؟

- إنها تبتسم لى . . تعاملنى برقة . . أذهب لزيارتها فتغرقنى بكرمها ولطفها . . ولماذا لا تحبنى؟؟ أتعتقدون أن هناك شكًا فى حبها؟؟

فيجيئه صوت من الخلف . .

- «لعل ما تراه منها مجرد مجاملات . . عالم البنات كله أسرار . . إن ما يدور وراء كواليسهن أشبه بما يدور وراء الكواليس فى حكومتنا . .» .

ويقول عبد النافع :

- «لماذا تعقدون الأمور؟؟ لو كانت تكرهنى لما خفى علىّ ذلك . . وجوه الناس لا تخفى شيئًا . . إننى أقرأ بوضوح كافة وجوه البشر . .» .

قال متخابث :

- «وماذا قرأت فى وجه السجان متولى عندما ضحكت عليه؟؟» .

- متولى كتاب أسود . . ومع ذلك قرأت فيه بداية لعلاقة سيئة . . سيعطينى «علقة ساخنة» فى أقرب فرصة تسنح . . سيظل يضربنى حتى أقول نع . . ع . . ع . .

وضج الجميع بالضحك، أخذوا يصفقون ويشدون شعورهم، ويضربون أرجلهم فى الأرض، ويدقون ظهر عبد النافع الأعجف بقبضاتهم سروراً وإعجاباً بروحه المرحة، وشخصيته الفريدة، وتهدأ ثورة الضحك، ويتذكر عبد النافع نعيمة، فتفنى وتذوب الضجة فى أذنيه، ولا يعود يسمع سوى صوتها الرقراق الحنون، وضحكتها الرقيقة الجذابة، وتنتشى روحه بعطرها الملائكى، ويعود يقول:

- دائماً تفسدون متعتى.. دعونى أتكلم عنها.. أنتم لا تعرفونها.. عندما نتزوج فسأدعوكم جميعاً لنقضى ليلة سعيدة كليالى السجن تماماً..».

صاح صديق:

- «أيها المخبول، هل فى السجن ليالٍ سعيدة؟..».

- لا أنكر أننا نتلقى بعض الإهانات السخيفة لكنها لذيذة.. أعتقد ذلك.. لولا هذه المضايقات لمللت السجن، ولما شعرت بأننا شوكة فى حلق الطغيان.. وللسجن يا أولاد فضل كبير علىّ.. لقد استطاع أن يزيد اشتعال قلبى، ويربطنى برباط أوثق وأعمق بنعيمه..

فرد أحد الزملاء:

- لو كان أبوك هنا لقال لك.. البعيد عن العين بعيد عن القلب يا ثور..

وهدرت موجات الضحك من جديد، وأعجب عبد النافع

بالتعليق البارع، فهب واقفًا، وعانق صاحب التعليق وأخذ يقبله في حرارة ويهنئه على «حسن تعبيره»، ويقول . .

- أنت تعرف أبى تمامًا .

وقال آخر :

- «لا شك أن بينك وبين نعيمة رسائل غرامية خالدة . . » .

وبان الاهتمام على وجه عبد النافع، وشرد بضع لحظات ثم قال :

- «حاولت ذلك مرارًا . . بصراحة أنا ضعيف جدًا فى الإنشاء . . » .

جربت قرض الشعر ففشلت . . وجربت الزجل ففشلت أيضًا . . كنت أجلس وفى قلبى كلام كثير كثير جدًا . . يملأ آلاف الصفحات وأمسك بالقلم وأضعه على الورقة فلا يتحرك . . كل كلمة فى ذهنى أقل من الواقع الذى يعمر روحى بمراحل كثيرة . . لو ترجمت أشواقى لكانت أروع قصيدة . . لو استطعت التعبير عن حبى بالقلم لكنت قيس بن الملوح . . » .

وعادوا إلى الضحك عندما نطق عبد النافع بكلمة «ابن الملوح» بطريقته الخاصة . .

لكن الباشسجان متولى لم يمهلهم، بل نفخ فى صفارته، ثم صاح :

- «كله . . إلى الزنازين . . » .

ثم اقترب من عبد النافع ، وقال فى حنق بالغ :

- «ادخل يا دكتور البهائم . . » .

رد عليه فى سخرية مرحة :

- «أية خدمة يا جاويش متولى . . » .

فأمسك متولى بشاربه الكث المفتول ، وقال :

- «وشرفى لأربيك . . » .

وهمّ عبد النافع بالكلام ، لكن متولى دفعه داخل الزنزانة المحتضرة الضوء دفعة قوية ، ثم أغلق الباب من الخارج . .

وفى داخل الزنزانة ، جلس عبد النافع على البرش الخشن إلى جوار اثنين من أصدقائه ، لم يزل خيال نعيمة يرف فى قلبه وروحه ، وأخذ يقول :

- «ولما فشلت يا أولاد فى تسطير خطاب يعبر عما فى قلبى . . اضطررت أن أكتب إليها كلمات قصاراً . . قلت فيه . . إلى العظيمة نعيمة . . تحياتى إليك وإلى خالتى حفظها الله . . إننى أتذكركم فى كل لحظة وأبعث إليكم بحبى الكبير الذى يملأ السماء والأرض . .

ولم أستطع أن أضيف شيئًا . . نظرت إلى الورقة البيضاء النظيفة

عاجزًا. . لكنى أيقنت أن نعيمة تستطيع أن تقرأ خطابى كما أشتهى ولو كان خاليًا من أية كلمة. . ».

- قال زميله وقد غلف الظلام الزنزانة:

- «وهل ردت عليك؟؟».

قال عبد النافع:

- «أنت تعلم أن ضباط السجن يمزقون رسائلنا. . ويخافون من الشفرات والحب السرى. . لا بد أنها أرسلت الرد وإن كان لم يصلنى. . بل لقد تخيلت ما كتبته لى. . وأكاد أحفظ عباراتها لفظًا لفظًا. . ».

هتف زميله فى دهشة:

- «أية عبارات يا مجنون!!».

«مستحيل أن تهمل نعيمة الرد. . إنها مهذبة. . ورقيقة وأنا أحبها. . ».

وشعر عبد النافع بيد تقبض على كتفه فى الظلام، فارتجف، ثم عاد فاطمأن وقد أدرك أنها يد زميله وأخذ زميله يهزه ويقول:

- «يا حبيبى هذا زمان الشيطنة. . أنت على نياتك. . ».

ارتعدت فرائص عبد النافع عندما أخبروه فى اليوم التالى أن أهله قد أتوا لزيارته ورجح أن أباه قادم، فكيف يستقبله، ودخل

حجرة الزيارة. . كان يتصدرها الضابط، وساقا عبد النافع ترتعشان. . لكن قطرات من السكينة نزلت على فؤاده المضطرب عندما رأى أمه تجلس وحدها لابسة فستانها الأسود، ونظارتها الطبية، وشالها الذى يخفى جزءاً من وجهها وعنقها، وانحنى على يدها يقبلها، قالت أمه فى نبرات دامعة :

– «أنت شاحب. . ألا تأكلون؟؟» .

– «كيف حالك ياما؟؟ وكيف حال أبى؟؟» .

– «ولماذا لا تحلق لحيتك؟؟» .

– «الموس من الممنوعات. .» .

– «وياقتك متسخة. .» .

وأخذت أمه تتحدث وتتحدث. . وترثى لحال ولدها، وهو يلقى إليها نصف انتباه، كان يفكر فى نعيمة، ويريد أن ينتهز الفرصة، ويعيد الكرة، ويضرع إلى والدته أن تخطبها له. . يجب أن يفعل ذلك قبل فوات الأوان. .

ووجد نفسه يقول وقلبه يدق :

– «وكيف حال خالتى؟؟» .

– «بخير. .» .

– «و. . و. . ونعيمة؟؟» .

قالت أمه وكأنها قد تذكرت فجأة . .

- «لقد أعطتنى لك خطابًا . . » .

قال عبد النافع فى لهفة :

- «أين ؟ ؟» .

ودست الأم يدها فى جيبها لتخرج الخطاب ، فجاءها صوت الضابط :

- «الخطابات ممنوعة يا ست . . » .

- «لكن . . » .

- «أوامر يا ست . . » .

- «تستطيع أن تقرأه أنت . . أو تقرأه عليه . . » .

ودارت الأرض برأس عبد النافع ، وفكر ، وهذه الكلمات المقدسة لا يصح أن يقرأها غيره ، إنها سر يجب أن يصان ولو دفع فيه حياته .

وقال الضابط :

- «مستحيل يا ست . . تهريب الخطاب عقوبته ستة شهور فى السجن . . » .

- «أعوذ بالله . . خلاص يا سيدى . . » .

وأخرجت الأم الخطاب، ثم راحت تمزقه، وتقول:

«ها هو الخطاب.. بالتأكيد ليس فيه سوى كلام فارغ..».

وأصاب الذهول عبد النافع، ثم استعاد رشده، وصرخ فى أمه:

- «ماذا تفعلين؟؟ إنه عمل شائن..».

وعادت الأم تقول فى دهشة:

- «يبدو أن السجن قد أتلف أعصابك..».

- «كيف تمزقين خطاب نعيمة؟؟ ألا تعلمين؟؟».

قالت الأم دون اهتمام:

- «لقد كتبته أمامى.. تريد أن تشكرك لأن أباك قد أحضر لها عريسًا مناسبًا.. «لقطة» ستطير هى وأمها من الفرح.. أنت تعلم أنها فقيرة ولا تشغل أى وظيفة.. لم يكن جمالها وحده بقادر على أن يجلب لها المستقبل المضمون.. إنها مدينة لأبيك بالكثير من أجل هذا الزوج الطيب..».

ازداد شحوب وجهه، وأفلتت دمعة على خده، وطأطأ رأسه.. وشعر بظلمات متكاثفة تثقل على روحه، وانبعث صوت الضابط كصفارة الإنذار.

- «انتهت الزيارة..».

النافذة

سمعت أكثر من صديق لى أننى أمارس عملى على صورة جافة وبقلب جامد لا ينبض بأية عاطفة، ولم يكن هذا يعنينى فى قليل أو كثير، وماذا يفعل الطبيب الذى يمضى أغلب ساعات يومه بين مرضاه؟؟ الجميع يتألمون أو يبكون وبعضهم يودع الحياة تاركًا وراءه اللوعة والأسى والدموع، كنت أعتقد أن الطبيب لا يمكن أن يعايش تلك المآسى كلها، وإلا صارت حياته مآتم متصلة لا نهاية لها.. أعترف أن بعض زملائى كان يبدو عليهم التأثر الشديد عند اللحظات الرهيبة، لحظات الموت فى الوقت الذى قد أجد نفسى فيه أزاول حياتى العادية دون انفعال يذكر.. إذ سرعان ما أضحك أو أتناول طعامى، أو أرتمى على فراشى متعبًا، ولا أكاد أفعل ذلك حتى أغرق فى سبات عميق..

عدت ذات ليلة إلى منزلى واستقبلتنى زوجتى بوجوم ظاهر كانت شديدة شحوب الوجه، ومع ذلك فقد وجدتنى أقول لها مداعبًا:

- «ماذا أعددت لنا الليلة من طعام؟؟ إنى أكاد أموت من الجوع».

قالت فى شىء من الغضب:

- «وابنك يكاد يموت من شدة الحمى..».

هتفت.. «الحمى؟؟ دائمًا تبالغين.. حتى مجرد نزلة الزكام العادية تجعلك ترتعدين خوفًا.. ثم تنهمر دموعك كالطوفان..».

لم أكد أوقع الكشف الطبى على طفلى البالغ من العمر ستة أعوام حتى تنهدت فى ارتياح، وقلت: «هيه، هذا ما توقعته، إنفلونزا..».

ومع ذلك فقد شعرت بخوف لم آلفه طول حياتى، حينما رأيت دموع زوجتى تنسكب فى صمت وخاصة عندما همس الصغير إبراهيم: «أنا تعبان يا بابا..».

نظرت إلى وجهه المستدير الدقيق الملامح، والعرق يتقاطر على جبينه الشاحب وترددت نظراتى على عينيه القلقتين الزائغتين، ورمقت صدره الذى يعلو ويهبط بصورة واضحة فداخلنى قلق غامض.. إنه ابنى.. ابنى الوحيد، ودموع زوجتى تزعجنى لأبعد مدى، حتى أن ثقتى بنفسى وبعلمى أخذت تهتز، وفكرت عند ذاك أن أحمل ولدى لأقرب طبيب.. لكن كيف؟؟ لقد رأيت من قبل

آلاف الحالات التى لا تختلف كثيراً عن حالة ابنى وعالجتها بمنتهى الهدوء والثقة، وكانت النتائج على خير ما يرام، وأخيراً حسمت الأمر قائلاً:

- «إنه لا يحتاج إلا لقليل من العقاقير وتنظيم الطعام.. وفى خلال يومين أو ثلاثة سيكون كل شىء على ما يرام..».

جففت زوجتى دموعها وإن لم يزايلها شحوب وجهها، وقامت متثاقلة لتحضر لى الطعام.. بينما ذهبت الخادمة لإحضار الدواء، حاولت أن أزدرد الطعام فلم أستطع كان يبدو فى فمى كقطع صغيرة من الخشب لا طعم لها.

مرت أيام ثلاثة كأطول ما تمر الأيام، لا أذكر أنى استطعت خلالها أن أقبل على طعامى بشهية، وفقدت النكات التى كنت حريصًا على سماعها كل جمالها ومرحها، كنت أزاول عملى بالمستشفى الذى أعمل به وأنا كالمنوم.. تجردت الحياة من كل ألوانها ومذاقها، تلاشى كل مرح السنين فى لحظات من التعاسة أطول من الزمن.. ولم تسعنى الدنيا من الفرحة وأنا أرى حرارته تنخفض، وحالته تتحسن فى اليوم الرابع، وسرعان ما أخذت ضحكاتى تجلجل فى آفاق المنزل والمستشفى، وكلما تذكرت الأيام الغريبة التى مرت بى أسخر من نفسى.. وفى اليوم الخامس ذهب طفلى إلى مدرسته كنت أتطلع إليه فى متعة وسعادة، وأنا أراه

يهرول لابسًا زيه الخاص، ومصروفه فى يده اليسرى، وحقيبته الجلدية الصغيرة فى يده اليمنى.. كان يخطو على الأرض ودقات قلبى تتابع خطواته.. آه من قلب الأب!

ودق جرس التليفون بالمستشفى وجاءنى صوت زوجتى الباكية:

- «عاد إبراهيم من المدرسة بالحالة نفسها.. لست أدرى لماذا لا تسارع بعرضه على إخصائى حميات؟؟ إنك تعذبنى».

تقاطر العرق البارد على جبينى، ودارت بى الأرض، ضاق العالم فى عينى، ولم أعد أرى إلا طفلى الصغير النحيل الشاحب راقدًا فى فراشه بين الأغطية البيضاء لاهث الأنفاس، ويهمس لى: «أنا تعبان يا بابا»، وألقيت سماعة التليفون فى ذهول، وخلعت معطفى الأبيض، ثم ارتديت سترتى واستأذنت قاصدًا بيتى، كانت نفسى تعمر بثورة ساحقة، مصدرها عجز الإنسان أمام أشياء صغيرة.. لماذا العذاب؟؟ ولماذا المرض والجهد المبذول فى حربه؟؟ ولماذا تحدث أشياء عارضة تفاجئنا، فتسرق البسمات من فوق شفاهنا، وتستلب البريق من عيوننا المبتهجة؟؟ لماذا كل هذا يا ربى؟؟

قلت لزوجتى: «حسنًا.. كل شىء على ما يرام.. يبدو أن الإنفلونزا خلفت وراءها مضاعفات على صورة نزلة شعبية حادة.. ألا ترينه يسعل ويلهث؟؟».

نظرت إليّ في خوف وحيرة وتمتمت: «لا.. أعرف.. أنت أدرى.. لشد ما أنا خائفة على الولد..»، وتقاطرت دموعها عندما سمعته يردد: «أنا تعبان يا بابا.. عاوز أخف وأروح المدرسة..».

كلماتك أيها الصغير تمزق نياط قلبي، وضراعات عينيك تسحق كبريائي وآمالي، وجبينك الشاحب المبلل بالعرق يورثني عذابًا ما بعده عذاب.. آه لو تعلم..

وثلاثة أيام أخرى وخفت حدة السعال، وأخذت درجة الحرارة تهبط يومًا بعد يوم تحت تأثير العلاج، وأمام التحسن الطارئ استعدت مرحي وراحة بالي، ولم أدعه يذهب إلى مدرسته إلا بعد أسبوع، ولم يستمر ذهابه سوى يومين، ثم جاءت زوجتي تقول:

- «إن الولد لا يأكل ولا ينام حسب عادته.. ويجلس صامتًا تائهًا لساعات طويلة.. لم يعد طبيعيًا.. ألا تقيس له الحرارة»؟

- «أوه.. كفى.. إن أوهامك الملحة لن تدع الولد يشفى».

- «لن تخسر شيئًا إذا ما قست له الحرارة..».

- «حاضر...».

وجمدت نظراتي على العمود الزئبقي اللامع في الترمومتر.. مستحيل أن يحدث هذا.. إن الحرارة تتجاوز التاسعة والثلاثين..

برغم العلاج والرعاية الزائدة . . ودق قلبى بسرعة . . إنه احتمال رهيب، ومعناه أيضًا رهيب . . وسمعت الطفل يقول :

- «بطنى توجعنى يا بابا . . » .

قالت زوجتى :

- «لماذا سكت؟؟ هل ارتفعت الحرارة؟؟» .

واختليت بها بعد أن فحصته فحصًا دقيقًا، وقلت وأنا أرتجف :

- «هناك شك كبير بأنه مصاب بالتيفوئيد . . » .

دقت على صدرها فى ذعر، وقالت :

- «ألم أقل لك؟؟» .

وانفرطت دموعها، ووجدتنى أنا الآخر أجفف دموعى، ثم ارتميت خائر القوى على أقرب مقعد، وقلت :

- «يجب أن تتماسكى . . إن مضاعفات هذا المرض اللعين غالبًا لا تظهر إلا فى الأسبوع الثالث . . وبعد دقائق سيكون فى البيت هنا أخصائى أطفال وأخصائى حميات . . كفى دموعًا . . إننى أحترق . . لكم تمنيت فى هذه اللحظات أنى لم أتزوج أو أنجب . . ألا تدركين أنه شىء رهيب؟ . . ارحمينى . . » .

وأخذت استطرد فى الحديث منفعلاً كمن يهذى :

- «إننى أتعذب. . إنه شىء غريب! ما هى أسوأ العقوبات فى نظرك؟! السجن؟؟ الإكراه البدنى؟؟ النفى؟ كلا . . لا شىء من هذا على الإطلاق . . إن الأسى النفسى النابع من العجز هو أبشع عقاب . .» .

يبدو أنها لم تكن تستمع إلىَّ، لا يهم إن الرجفة الجديدة تجعلنى أثرثر فى حسرة، وأتخبط فى مرارة، وأخيراً وصل الأطباء، وقال فى وقار حزين :

- «إنه التيفوئيد . . وسيتم تحليل الدم الليلة . .» .

وامتدت بى الخواطر السوداء . . الطفل المسجى فى فراشه دون حراك . . الصرخات الملتاعة . . النعش . . الرحلة المعذبة من البيت للقبر . . العزاء . . البقية فى حياتك .

ولم أدرِ كيف أفقت من إغفائى وأنا أصرخ وأبكى كالمجنون :

- «ولدى . . ولدى . . ولدى» .

وفتحت عينى، كانت زوجتى تربت على كتفى ورأسى فى حنان وإشفاق، أما ولدى فقد رفع رأسه فى دهشة الدموع تبلل عينيه، ويقول بصوت باكٍ :

- «بتعمل كده ليه يا بابا . . ما أنا كويس أهه . .» .

وتقدمت نحو إبراهيم، وضممته إلى صدرى فى حنان،

وأخذت أقبل رأسه وجبينه ووجهه ويديه ورجليه، ودموعى لا تكف عن التدفق، إن الله أرحم من أن ينتزع قلبى ويقذف به فى قبر سحيق . .

- «لأننى أحبك يا إبراهيم . .».

- «لا أريدك أن تبكى . .».

- «يا حبيبى . .».

- «صاحبى عادل كان مريضًا . . وشفى» . .

تنهدت فى ارتياح، ثم أشعلت سيجارة، شعرت أنى أولد من جديد، وأنزل الله فى قلبى آنذاك قبسًا من اليقين والإيمان والاطمئنان، هذا القبس يعرفه الطبيب فى حياته العملية العلمية . . كثيرًا ما يحدث أن ينبثق فى قلبى نبع اطمئنان على حياة مريض برغم خطورة مرضه . . وبرغم دراستى العلمية فإن ذلك الإلهام قلما يخيب الظن فيه . . أجل . . شعرت أن ولدى إبراهيم على أعتاب الشفاء بعد ثبوت النتيجة بالتحليل، وبعد تعاطى جرعات الدواء الخاصة . . لم أقلق بعد ذلك على ولدى برغم علمى بخطورة الأسبوع الثالث من المرض . .

وعدت من عطلتى بعد شفاء إبراهيم، وأقبلت على عملى فى المستشفى بروح جديدة، كان الجميع يبدون دهشتهم لما أبذله من

جهد متصل، زائد، وكانت دهشتهم أكثر وهم يرونني أتألم لدرجة البكاء عندما يخطف الموت واحداً من المرضى، ومع ذلك فإن ضحكاتي لم تزل تجلجل في الأوقات المناسبة. . الأوقات التي ليس فيها موت. .

آه ما أقساها من تجربة. . كنت أنظر إلى ولدي وهو يجري ويلعب مع أقرانه في حديقة منزلنا، فأتمتم:

- «آه لو تعلم يا إبراهيم. . من خلال مأساتك العنيفة التي عصفت بي، ووسط ظلامها القاسي الرهيب، اكتشفت النافذة التي أستطيع أن أطل منها على أحزان التعساء. . إنه شيء رائع وفظيع في الوقت نفسه. .».

●●●

الفهرس